رواية

بعلزبول ميريام

ناجي محمد

دار كتاب للنشر والتوزيع



كتاب

مسئول النشر

طارق رمضان

مدير التوزيع

عمر عبد السميع

مدير العلاقات

مها عادل

الطبعة الأولى

الكتاب : بعلزبول ميريام

تأليف : ناجى محمد

تصنيف الكتاب : رواية

مصمم الغلاف : عبد الرحمن سندوبى

إخراج : أحمد عبد الرحمن

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٠٧٧١ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : 1 - 34 - 6597 - 977 - 978

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر

التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨

Email : darkitabone@gmail.com

إهداء

إلى نفسي الحزينة.... لعلها تجد بعض العزاء.

«و أما أنا فأقول لكم، أحبوا أعدائكم باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، و صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم»

(متى ٥ : ٤٤)

(١)

أحمد

كان أول أيـــام عمـــلى فى تلـــك المدرســـة الخاصـــة للغـــات بالدقـــى.. مدرســـة عريقـــة ... لهـــا إســـمها، و ســـمعتها الطيبـــة ... و طلبتهـــا أيضـــا لهـــم ميـــزات خاصـــة تميزهـــم عـــن طـــلاب باقـــى المـــدارس .. مســـتوى علمـــى جيـــد .. و مســـتوى أخلاقـــى لا بـــأس بـــه .. و بالطبـــع مســـتوى إجتماعـــى متميـــز.

كل ذلـــك، عـــن تلـــك المدرســـة، كنـــت أعلمـــه قبـــل أن يتصـــل بـــى أحـــد زملائـــى و يخبرنـــى أنهـــا فى حاجـــة إلى مـــدرس للفيزياء، و أنـــه قـــد أعطـــى إدارتهـــا اســـمى و رقـــم هاتفـــى المحمـــول، و أخبرنـــى أنهـــم يطلبـــون منـــى الذهـــاب إلى المدرســـة غـــداً لأقـــوم ببعـــض الإجـــراءات الروتينيـــة .. مثـــل مقابلـــة المديـــر و عمـــل إختبـــار بســـيط لتحديـــد مـــا إذا كنـــت أصلـــح للتدريـــس أو لا.

و بالطبع كان إحتياجهم لمدرس كفيلاً أن يجعل كل تلك الإجراءات سهلة و بسيطة .. هذا بالإضافة إلى قدراتى و إمكانياتى العلمية و مهاراتى التدريسية التى حبانى الله بها.

لم يكن ذلك اليوم هو أول أيام العام الدراسى، لكنه كان أول أيام العام الجديد.. فقد تقدمت إلى العمل بالمدرسة فى أواخر شهر ديسمبر.. وتم قبولى على أن أبدأ العمل مع بداية شهر يناير.

فى صباح ذلك اليوم .. توجهت إلى المدرسة، و قبل الثامنة كنت قد وصلت إليها .. قمت بالتوقيع فى دفتر الحضور أمام سكرتيرة المدير .. سيدة فى أول الخمسينات.. متوسطة الطول .. والجمال .. و تلمح المكر فى عينيها، و لا ترتاح إلى نظراتها.

بعد التوقيع توجهت إلى مكتب المدير، الذى كان مفتوحاً.. بالطبع ليرى من يأتى متأخراً من المدرسين.. كان الرجل قصيراً.. بديناً.. يشبه إلى حد كبير، أبو لمعة.. لكنه كان شخصية عجيبة وغريبة.. نموذج نادر.. إدارى فاشل و ناجح فى ذات الوقت.. غريب؟ أليس كذلك؟ .. توجهت إلى مكتبه.. حييته:

- صباح الخير يا أفندم.

- صباح الخير يا مستررر...؟

قـام مـن عـلى كرسـيه لـيرد تحيتـى .. بدايـة طيبـة و مقبولـة . و شـعرت أنـه قـد نسـى اسـمى.. تصنعـت أنـى أذكـره بنفسـى حتـى أعيـد عليـه إسـمى، الـذى لم ينسـه، و لم يُخطـأ فيـه و لـو مـرة واحـدة بعـد تلـك المقابلـة.

قلت له:

- أنا مستر أحمد .. مدرس الفيزيا الجديد..

قال وهو يبتسم:

- طبعا يا مستر أحمد.. دااا إحنا فى انتظارك..

و سـمعت رنـة جـرس .. يبـدو أنـه ضغـط عليـه ليسـتدعى السـكرتيرة.. مـع أن البـاب مفتـوح .. و المسـافة ليسـت بالبعيـدة.. لكـن يبـدو أن المديـر .. لابـد أن يسـتدعى سـكرتيرته عـن طريـق وسـيلة إتصـال... قـال لهـا فى جديـة:

- إبعتـى حـد يجيـب مسـتر محسـن مـن المعمـل .. و عرفيـه عـلى مسـتر أحمـد.

كان المديـر لا يحسـن نطـق حـرف الـراء.. دائـماً مـا ينطقـه يـاء.. فكانـت كلمـة مسـتر تخـرج منـه بشـكل يبعـث عـلى الابتسـام.

جـاء مسـتر محسـن.. تعارفنـا بشـكل ودى.. و ذهبـت معـه إلى المعمـل.. المبنـى الـذى بـه مكتـب المديـر، هـو المبنـى الرئيـسي فى المدرسـة.. فيـلا قديمـة .. نزلـت منـه مـع محسـن.. و عبرنـا فنـاء المدرسـة الـذى يتـم فيـه طابـور الصبـاح .. و تحيـة العلـم.. و حصـص الألعـاب.... مرورنـا، نحـن الكبـار، فى فنـاء المدرسـة.. و خاصـة إذا كان الوقـت شـتاء.. يثـير فينـا ذكريـات المـاضى... رأيتنـى وأنـا طفـل فى الإبتدائـى.. كنـت مميـزاً جـداً.. أطـول أقرانـى، وهـذا أمـر لم يسـتمر طويـلاً.. وكنـت الأول عليهـم دائـماً.. و كنـت وسـيماً .. متكلـماً.. كل ذلـك جعلنـى فى مـكان مميـز لـدى أسـاتذتى.. ثـم رأيتنـى و أنـا فى الإعـدادى حيـث بـدأت مرحلـة البلـوغ مبكـراً.. كنـت قـد انتقلـت إلى مدرسـة فى قريـة مجـاورة .. هنـاك كنـت الأول كعادتـى .. وهنـاك .. كانـت بدايـات الحـب .. والعشـق.. و الإنحـراف أيضـاً.

توجهـت مـع محسـن إلى مبنـى آخـر حديـث نسـبياً.. ويضـم معملـين.. واحـد للأحيـاء والآخـر للكيميـاء والفيزيـاء.. صعدنـا طابقـاً لأجـد حجرتـى المعمـل فى مواجهتـى.. وعـلى بـاب إحداهـا يقـف زميـل .. علمـت أن اسـمه أيمـن و أنـه يـدرس السـاينس للمرحلـة الإعداديـة... قدمنـى إليـه مسـتر محسـن.. صافحتـه وتبادلنـا حديثـاً روتينيـاً.

كان ظهـرى إلى السـلم المـؤدى إلى الطابـق العلـوى.. و كان محسـن يقـف بجـوار أيمـن فى مواجهـة السـلم.. رفـع محسـن رأسـه تجـاه السـلم.. إبتسـم.. وقـال:

– هاى مريم... تعالى..

و اسـتدرت، بتلقائيـة إلى الخلـف.. و لم أكـن أحسـب أن مغاليـق قلبـى التـى فرضتهـا عليـه منـذ مـدة، قـد علقـت بثيابـى، فانفتـح قلبـى عـلى مصراعيـه.. و لم أدرِ أن باسـتدارتى تلـك.. كتبـت أول سـطر فى حكايـة عشـق.. تصالـح فيهـا عقلى مـع قلبـى بعـد قطيعـة دامـت لسـنوات.

مـا أصعـب العيـش بـين عقـل و قلـب ليـس بينهـما ود.. فـرض عقـلى عـلى قلبـى عزلـة جبريـة ليمسـك هـو بزمـام حياتـى بعـد أن فشـل قلبـى أكثـر مـن مـرة.. تلقـى خلالهـا طعنـات كادت أن تـودى بـه.

قـد تبـدو تلـك العزلـة المفروضـة عـلى قلبـى قسـوة مـن عقـلى.. لكنهـا كانـت منتهـى الرحمـة بتلـك النفـس المفرطـة فى الحـب لحـد الهيـام... لا أقصـد حـب الرجـل للمـرأة فقـط.. إنـما الحـب بمعنـاه الواسـع .. ذلـك الـذى يجعلـك تحـب كل النـاس .. أهلـك.. جيرانـك.. أصدقائـك .. و طبعـاً فى قلـب

القلب.. تسكن المرأة.. ذلك المخلوق الذى يعرف كيف يسكن قلب الرجل دون عناء.

لم تكن المرأة وحدها من وجهت إلى قلبى ضربات.. لكن كان لها السبق.. و أيضاً النصيب الأكبر من مأساته....

طفل فى السابعة من عمره تسأله أمه:

- مين أشطر واحد فى الفصل؟

فيجيبها بسرعة:

- أنااااا....

- و مين أشطر واحدة؟

فيجيبها بصوت يملؤه الوجد:

- مى...

- مين مى دى يا حبيبى؟

- دى بنت جميلة أوى يا ماما...

فتضحك الأم.. و تقبل ابنها.. و تقول:

- الواد عنده سبع سنين وبيعرف يعجب بالبنات!!!!

كنـت أنـا ذلـك الطفـل.. لكـن أمـى أخطـأت التعبـير.. لم يكـن اعجابـاً.. بـل حبـاً.. أجـل.. عرفـت الحـب.. حـب الرجـل للمـرأة.. وأنـا ابـن سـبع سـنين.. سـكنتْ مـى فى قلبـى الصغـير.. فـكان لهـا وحدهـا.. و لم يكـن بـه متسـع لغيرهـا.. و كـبرتْ مـى .. و كـبر قلبـى معهـا ولهـا وحدهـا.. دق عـلى بابـه فى الاعـدادى والثانـوى كثـيرات.. لكـن مفتاحـه لم يكـن معـى.. إنـما كان فى يـد مـى المتربعـة بداخلـه.. أحببتهـا.. كـما لم أحـب أحـداً.. أو هكـذا ظننـت.

لكـن .. مـاذا عـن مـى؟!!.. هـل تحبنـى؟.. هـل تشـعر بـى أو بحبـى؟.. لا أدرى..

كنـا قـد ألتحقنـا بالجامعـة ولكـن .. كل منـا فى كليـة مختلفـة عـن الآخـر.. كنـت كثـيراً أذهـب إلى الكليـة التـى تـدرس بهـا و أنـا أنـوى مصارحتهـا..

تخيـل.. كل تلـك الأعـوام .. أحبهـا و لم أصرح لهـا بحبـى.. كنـت اجتماعيـاً.. منفتحـاً.. حبوبـاً كـما يقولـون.. لا أتهيـب الحديـث مـع النـاس ولا حتـى مـع البنـات.. إلا .. مـى.. ينعقـد لسـانى عندمـا أراهـا.. ذهبـت إلى كليتهـا مـرات كثـيرة.. و فى كل مـرة.. كان الأصدقـاء و المعـارف يلتفـون حـولى.. يرحبـون بـى فى كليتهـم.. و يحيطـون بـى ولا يفارقوننـى حتـى ينتهـى اليـوم فننـوى العـودة إلى ديارنـا.. كنـت أراهـا امامـى، لكنهـا

لم تكـن مـن النـوع الاجتماعـى.. المنفتـح، لذلـك لم أكـن .. أبـدا.. لأسـبب لهـا حرجـاً بـأن أحادثهـا هكـذا علنـاً أمـام مـن يعرفوننـا مـن زمـلاء الدراسـة أو الذيـن مـن قريتنـا..

إلى أن جـاء يـوم الإثنـين.. يـوم مـن أيـام شـهر فبرايـر.. يـوم فـارق فى حياتـى.. و لمَ لا؟ و قـد كان مـا بعـده مختلفـاً تمامـاً عـن الأيـام التـى قبلـه..

فى ذلـك اليـوم.. ذهبـت إلى الكليـة التـى تـدرس بهـا، و كلى تصميـم عـلى محادثتهـا.. و التصريـح لهـا بحبـى.. و الوقـوف عـلى حقيقـة مشـاعرها نحـوى.. فقـد وصلـت إلى حالـة يصعب معهـا الإسـتمرار دون أن أخطـو خطـوة للأمـام فى علاقتـى بهـا.. كان لابـد أن أعـرف.. هـل تحبنـى وتبادلنـى المشـاعر؟ أم أن عـلىَ أن أقتلـع قلبـى مـن تحـت ضلوعـى.. فذلـك أسـهل مـن اقتلاعهـا منـه؟

وانقـضى اليـوم كسـابقيه مـن الأيـام.. أحـاط بـى زملائـى و لم يفارقونـى لحظـة.. كأنهـم يعلمـون نيتـى.. و كأنهـم يريـدون إفشـال خطتـى.. و قبـل أن ينتهـى اليـوم بـذات النهايـة.. بعودتنـا جماعـات.. قـررت أن أنـصرف وحـدى.. وعبـثً حاولـوا إقناعـى أن أبقـى بقيـة اليـوم معهـم.. أحاطـوا بـى.. حاصرونـى.. لكننـى اسـتطعت الفـكاك مـن حصارهـم.. كان قـرارى بالإنـصراف فجـأة لأننـى شـعرت باليـأس مـن إتمـام ما

انتويت فعله مرات عديدة.. شعرت أن القدر يحول بيني و بينها .. أو أن الله يريد أن يحفظ ماء وجهي لي.. فربما .. لا تبادلني حباً بحب.

كان ذلك الخاطر كفيلاً بأن يجعل حالتي النفسية صعبة للغاية.. فاستأذنت من زملائي.. و خرجت من باب الكلية أقدم رجلاً و أؤخر أخرى.. أسأل نفسي.. هل أخطأت؟.. هل كان يجب أن أنتظر؟.. فربما... هل سأعود غداً لأحاول من جديد.. لأفشل من جديد؟!!.. خرجت من باب الكلية مكتئباً.. شارداً.. تائهاً بين أفكاري.. وقراري ... نظرت أمامي.. فرأيتها أمامي.. بضعة أمتار فقط، تفصلني عنها.. كانت تسير مع زميلة لها، لا أعرفها.. ليست من زملاء الدراسة الذين يعرفوننا.. ليست من قريتنا..

إنها أمامي.. أيكون القدر قد رتب لنا .. أخيراً.. لقاء؟ هل أستسلم لذلك الخاطر الذي اعتراني و كدر علي يومي؟.. إنها فرصتي لأصارحها بحبي.. لأقف على حقيقة مشاعرها نحوي.. لن أضيع الفرصة.. أجل.. سأنادي عليها و أكلمها.. لكن هل أستطيع أن أناديها؟.. لساني لم ينطق اسمها بعد حكاية أمي و لو مرة واحدة.. ولماذا ينطق لساني باسمها وقلبي يدق انقباضاً وانبساطاً مُرناً به؟.. هل تصل إليها دقات قلبي فتخبرها بحبي

و تقــول لهــا إننــى ورائهــا.. أريــد الإعــتراف لهــا؟.. هــل تصــل إليهــا دقــات قلبــى فتنتظــم مــع دقــات قلبهــا فيتناغــما فى ضربــات منتظمــة الإيقــاع.. أم أنهــا فى حاجــة إلى أن أنــادى اســمها.. لتعلــم إنــى خلفهــا .. أراقبهــا.. انتظرهــا.. أحتــاج إليهــا؟..

لملمــت كل هــواء فى رئتــاى .. و مــا حاجتــى إليــه بعــد الآن؟ فإمــا أن أمــوت لفقدهــا.. و أمــا ان استنشــق زفيرهــا.. و اســتجمعت كل مــا بقــى لى مــن قــوة.. و دفعتــه إلى حنجرتــى و ناديــت بأقــصى مــا يمكننــى.. « مــى «.. فخــرج صوتــى همســاً.. كــدت مــن ضعفــه ألا اســمعه بأذنــى، لكــن قلبــى أحســه دويــاً هــادراً.. نظــرت.. فــاذا هــى.. توقفــتْ.. اســتدارتْ.. لقــد ســمعتنى.. بقلبهــا لا بأذنيهــا.. هــذا مــا قالتــه لى بعدهــا.. فقــد ســألتها زميلتهــا كيــف ســمعتْ صوتــى فلبــتْ ندائــى مــع انهــا لم تســمع أحــداً ينــادى؟ .. لكــن دقــات قلبهــا توحــدت مــع دقــات قلبــى فى نبضــة قويــة.. نبهــت أذنيهــا.. فالتفتــت إلي..

اســتاذنتْ زميلتهــا و انصرفــتْ.. لابــد أنهــا أحســت بــما بيننــا.. فإعــلان الحــب ليــس كلــمات تقــال باللســان.. و إنــما أحــوال القلــوب تفضحهــا العينــان.. العينان الخضراوتــان.. كان نظــرى إليهــما كافيــاً لأن تقــف كل الكلــمات فى فمــى.. وجنتاهــا الورديتــان.. أنفهــا الممتــد إلى الأمــام فى شــموخ و كبريــاء..

فمهـا الواسـع و شـفتاها الرقيقتـان.. وقفـت أمامهـا أتأمـل كل ذلـك صامتـاً.. حتـى اسـتحى الصمـت منـى.. لم تكـن تلـك المـرة الأولى التـى أقـف فيهـا أمـام فتـاة أو أحـادث أنثـى.. لقـد كنـت.. كأى شـاب.. أقصـد.. كأى شـاب ذو تجـارب.. لكننـى اليـوم.. لسـت أمـام أى فتـاة.. أننـى أمـام .. مـاضىَ و حـاضرى و مسـتقبلى.. أمـام آمـالى و آلامـى.. أحلامـى و طموحاتـى.. سـعادتى و شـقاوتى..

انتبهت من سكرتى بعينيها فقلت لها:

– مااا.. نتكلم واحنا ماشيين أحسن؟!!

أشـارت أن تفضـل.. صمـت لبرهـة.. ثـم قلـت، و كأننـى ألقـى عـن عاتقـى حمـلاً ثقيـلاً..

– بصى... أنا باحبك و عاوز اتجوزك..

هكـذا.. كـما يقولـون .. قلتهـا « خبـط لـزق « .. لم أجـد سـوى الإختصـار و الوضـوح طريقـاً يريحنـى و يضـع عنـى حمـلى.. قلتهـا .. فأحسسـت براحـة وسـكينة... و نظـرت فى وجههـا كـى أستشـعر مـن ملامحهـا ردهـا.. فرأيـت فيهـا طمأنينـة و سـعادة.. لكنهـا لم تـرد عـلىَ.. فأردفـت قائـلاً:

– ما ردتيش علىَ...

لم تــرد.. و ازداد إنحنــاء رأســها بازديــاد خجلهــا.. لكننــى أريــد رداً يريــح قلبــى مــن ســنوات اضطرابــه و قلقــه.. قلــت لهــا:

– انــا عــاوز اســمع ردك.. مــش عــاوز اســتنتج حاجــة.. قــولى بصراحــة.. مهــما كان شــعورك.. انــا هاتفهمــه...

– انااااا.. اااا..

و لم تستطع أن تكمل.. فسألتها:

– انتى ... بتحبينى؟!!!

هنــا ... التهبــتْ وجنتاهــا.. و ابتســمتْ شــفتاها.. ثــم حركــتْ رأســها صعــوداً وهبوطــاً.. فألححــت عليهــا.. حتــى قالــت:

– أيوه .. باحبك.. و من زمان...

لحظــة اعــتراف حبيبــين بالحــب لبعضهــما البعــض.. هــى مــن أكثــر اللحظــات تكــراراً فى تاريــخ البشريــة.. ذلــك الحــدث .. يتكــرر يوميــاً آلاف المــرات.. بــل ربــما ملايــين المــرات.. لكنــه الحــدث الــذى لا تمــل الإنســانية مــن تكــراره..

كثــيرة هــى تلــك اللحظــات المميــزة فى حيــاة كل انســان.. أول يــوم دراســة.. أول يــوم عمــل.. أول يــوم زواج... لكــن...

تظـل لحظـة الإعـتراف بـأول حـب.. لأول حبيـب.. لهـا وقـع خـاص و أثـر بـاق و مميـز فى قلـب ووجـدان كل واحـد منـا..

ثـلاث سـنوات مضـت علينـا .. كنـا نلتقـى أثنـاء الدراسـة يوميـاً.. نتكلـم فى كل شـئ.. نتشـارك كل شـئ.. لعبنـا.. مرحنـا.. حلمنـا.. عشـنا السـعادة حقـاً.. و فى أيـام الأجـازة.. كنـا نسـترق مكالمـة هاتفيـة أحيانـاً.. و أحيانـاً أخـرى نلتقـى خـارج القريـة ولكـن بصعوبـة شـديدة.. فهـى لم تكـن تخـرج إلا مـع أمهـا.. نـادراً مـا تخـرج بدونهـا فى غـير أيـام الدراسـة لأنهـا اصغـر إخوتهـا وبفـارق زمنـى كبـير.. مـات ابوهـا وهـى طفلـة .. فاحتضنتهـا امهـا.. و شـكلت شـخصيتها كـما أرادت..

ذات يـوم أهدتنـى مـى وردة حمـراء.. قطفتْهـا مـن حديقـة منزلهـا.. ثـم حكـتْ لى كيـف ضبطتهـا امهـا وهـى تقطفهـا و تشـمها.. فسـألتها بمكـر:

- هتديها للجو..؟

أجابتها مى .. وهى تنطلق مسرعة مبتعدة عنها:

- آه...

كان ذلـك فى نظـر مـى و نظـر امهـا، بجاحـة غـير معهـودة.. و ربـما أحتـاج الأمـر إلى توبيـخ مـن الأم بعـد عـودة مـى إلى البيـت فى آخـر اليـوم..

احتفظـت بتلـك الـوردة لسـنوات كثـيرة.. أنسـانى عقـلى عددهـا .. و محـا مـن قلبـى مكانهـا..

و بالطبـع .. بعـد هـذه السـنوات الثـلاث .. تقدمـت لخطبتهـا.. ذهبـت إلى أخيهـا الأكـبر فى شـقته وطلبـت يدهـا.. كان رجـلاً مهذبـاً.. طلـب منـى أن أمهلـه يومـين ليعـرض الأمـر عـلى الأم.. لأن الأمـر كلـه بيدهـا .. تلـك اليـد التـى مزقـت أحلامـى..

فى اليـوم التـالى.. قابلـت مـى.. و عرفـت منهـا مـا جـرى.. كانـت حزينـة.. تبكـى بشـدة.. أخبروهـا أننـى لا أناسـبها.. و أخبرتهـم أنهـا لـن تتـزوج غـيرى..

صدقونـى.. أن تنطـق مـى بتلـك الكلـمات فى وجـه أمهـا و إخوتهـا.. هـو أقـصى مـا يمكنهـا.. هـو أقـوى تعبـير عـن حبهـا لى و تمسـكها بـى.. لم يكـن فى وسـعها أكثـر مـن ذلـك.. تلك هى شـخصيتها.. و طريقـة تربيتهـا.. كنـت عـلى اسـتعداد أن أفعـل أى شـئ.. أن اتحـدى كل شـئ .. أن أقـف فى وجـه كل شـخص، فى سـبيل أن تسـتمر علاقتنـا وأن نتـزوج.. لكننـى أحسسـت ضعفهـا.. و قلـة حيلتهـا.. لم أشـأ أن أحملهـا مـا لا تطيـق.. اتفقنـا عـلى إنهـاء علاقتنـا.. و قمنـا.. و لأول مـرة .. خـلال ثـلاث سـنوات .. تمـضى وحدهـا و تتركنـى جالسـاً فى النـادى المطـل عـلى النيـل الـذى شـهد الكثـير مـن لحظـات حبنـا..

بعد يومين .. و برغم أنى أعلم الذى كان.. ذهبت إلى أخيها لكن فى مكان عمله.. ليخبرنى بقرار أمها..

أصعب.. و أقسى .. و أطول دقيقة مرت علىَ فى حياتى.. لم يستمر لقاؤنا أكثر من دقيقة.. كانت تكفى أن يخبرنى أن الأم قد رفضت .. و أن كل شئ نصيب .. فقلت له: أشكرك .. و انصرفت .. كان بوسعى ألا أذهب .. و ألا أحمل نفسى و أعصابى تلك المعاناة التى لاقيتها من تلك المقابلة القاسية.. لكن.. كان من الممكن أن يسبب ذلك لها مشكلة مع أهلها.. لذلك قررت أن أرفع عنها ذلك الحرج.. كان قلبى هو من قرر ذلك.. قلبى الذى لم يكن ليوقع إنسانا يحبه فى موقف حرج.. قلبى الذى على استعداد أن يتحمل.. عوضاً عمن يحب.. الضيق و الألم.. كان ذلك من أخطاء قلبى التى أنكرها عليه عقلى..

كنت أمسك بالهاتف.. أطلب رقم منزلها.. أسمع صوتها تكرر..» آلو «.. فيقول لى قلبى: إنها تدرك أننى الذى على الهاتف.. و أسمعها بقلبى تقول: انسى ما قلته لك فى النادى.. أنا أحبك.. تعالى.. أنا لك.. أنتظرك... و لولا أن عقلى يمسك بطرف لسانى و يطبق عليه فمى لصرخت أنا قادم إليكى... و كان ذلك من أخطاء قلبى التى أنكرها عليه عقلى... وبّخنى عقلى

و لامنــى.. لكنــه كان رحيــماً بقلبــى.. متفهــماً لمــا يمــر بــه.

كنــت أجلــس ليــلاً عــلى شــاطئ الترعــة المواجهــة لبيتهــا.. أنظـر إليـه.. أرى الضـوء صـادراً منـه.. و أرى سـيارة الخاطـب الـذى جـاء لزيـارة خطيبتـه و أهلهـا.. فأتصـوره قاتـلاً أتـى ليقتـل أمـلى.. أو مصـاص دمـاء يرتشـف مـا تبقـى مـن دمـى.. أو فاجــراً يغتصــب منــى عــرضى و شرفى... لم يكــن قلبــى ليتحمـل تلـك الصـور... انطلقـت أركـض ناحيـة بيتهـا.. لا يمكـن أن أتركهـا أو أتخـلى عنهـا لذلـك الغريـب فيفترسـها... مـرة يوقظنـى أحـد المـارة بسـؤاله: انـت بتجـرى ليـه كـده؟.. فى ايـه حصـل؟.. فأنتبـه... ومـرة يوقفنـى عقـلى فى منتصـف الطريـق فأنفجـر بالبـكاء... هنـا اضطـر عقـلى لإتخـاذ بعـض الإجـراءات الإحترازيـة ضـد قلبـى.

اسـمعك و أنـت تقـول: هـى لم تحبـك.. و أسـمعك تكـرر « لـو كانـت.. لكانـت «.. لا يـا عزيـزى.. لـو عرفتهـا.. لـو فهمتهـا.. لـو كنـت معنـا.. لأدركـت أنهـا بالفعـل أحبتنـى.

آخــر مــرة رأيتهــا فيهــا، كنــت أســير فى أحــد شــوارع المدينـة.. حيـث تزوجـتْ.. مـن بعيـد رأيتهـا.. كان ذلـك بعـد مـرور أكثـر مـن سـنة عـلى زواجهـا.. يصعـب عـلىَ وصـف حـالى خـلال تلـك السـنة.. لكنهـا كانـت كافيـة لأن يفـرض عقـلى عـلى قلبـى شـبه سـيطرته تمامـا.. رأيتهـا قادمـة نحـوى..

حتـماً سـنتقابل.. و تلتقـى أعيننـا.. لـن أقـوى عـلى احتـمال ذلـك اللقـاء.. أخشـى مـن قلبـى.. و أشـفق عليـه.. حتـى ان كنـت سـأقوى.. هـل أسـمح لنفسـى أن أسـبب لهـا حرجـاً بلقائـى؟.. إنهـا الآن إمـرأة متزوجـة.. و لسـت أدرى.. هـل تسـبب لهـا رؤيتـى حرجـاً مـع نفسـها؟.. و ربـما لا يقـوى قلبـى عـلى تجاهلهـا فاسـتوقفها.. و ربـما رآنـا أحـد معـارف أو أقـارب زوجهـا فأكـون السـبب فى إحـداث ضيـق أو ألم لهـا.. لا.. ليس أنـا مـن يفعـل ذلـك... و رغم شـوقى الجـارف لسـماع صوتها.. و رؤيـة عينيهـا.. فقـد اتخـذت سريعـاً قـرارى وانتقلـت إلى الجانـب الآخـر مـن الشـارع وطأطـأت رأسـى لأسـفل.. لعـل الزحـام يخفـى عنهـا مكانـى و رسـمى.. و انطلقـت لا أنـوى عـلى شـئ... لكنهـا.. رأتنـى.. بقلبهـا رأتنـى.. فالقلـوب لهـا بصـيرة أقـوى مـن البـصر.. بعينيـك تـرى فقـط مـا هـو أمامـك.. لكـن بقلبـك تبـصر جميـع مـا حولـك... أجـل رأتنـى بقلبهـا.. فانتقلـتْ إلى الجانـب الـذى أسـير فيـه لتقـف أمامـى.. تعـترض طريقـى.. توقفـت.. رفعـت رأسـى.. ابتسـامتها السـاحرة..عيناها الخضراوتـان الواسـعتان.. تلـك الحسـنات عـلى خدهـا والتـى لـو تعمـدت رسـمها مـا ظهـرت بذلـك الحسـن... مـدتْ يدهـا لتصافحنـى.. أمسـكت يدهـا فارتعـش قلبـى و تجمـد دمـى فى عروقـى.. سـألتنى:

- عامل ايه؟

أجبتها بصوت كسير:

- الحمد لله .. و انتى؟.. ايه اخبارك؟

تنهدتْ.. فدبتْ فى قلبى الحياة و أفاق من جديد على رائحة انفاسها الزكية تملأ رئتى قالت:

- الحمد لله.

- عامله ايه فى حياتك؟... طأطأت رأسى و أردفت قائلا: عامله ايه مع جوزك؟

ردت فى هدوء:

- الحمد لله.. هو رجل طيب..

رغماً عنى لم أشأ أن أطيل وقوفنا.. فربما حدث ما لا أريده لها... سحبت يدى من يدها.. فأخذتْ روحى معها..

- عاوزه أى حاجه.. تؤمرى بأى حاجه؟

- لا ... أشكرك..

نظرت فى عينيها لآخر مرة.. و قلت:

- أشوفك بخير.. و انطلقت.

وإلى الآن.. لا أدرى.. هـل نظـرت خلفهـا لترقبنـى وأنـا ابتعـد أم لا؟.. فأنـا لم أنظـر خلفـى لأراهـا و هـى تبتعـد.. لأن قلبـى لم يحسـب ابتعادهـا فراقـاً.. إنهـا شـاخصة فيـه .. حيـة.. مقيمـة بداخلـه.. تملـؤه.. فكيـف يكـون بـين قلبـى و قلبهـا فـراق؟

أظنـك يـا عزيـزى.. قـد ظننـت أننـى سـأقول: حـين رفعـت رأسـى فى وجههـا.. و ألتقـت عينـى بعينيهـا.. رأيـت شـيطاناً.. أو شـبحاً.. أو انسـاناً آخـر كريهـاً.. حطـم آمـالى.. و مـزق أحلامـى.. أو .. أو..

لا.. لسـت أنـا مـن يـرى مـى عـلى تلـك الحـال البشـعة.. بـل هـى لا يمكـن بـأى حـال مـن الأحـوال أن تكـون إلا فى صورتهـا الجميلـة الرقيقـة الحبيبـة.. إننـى أراهـا بقلبـى المفتـون بهـا.. أراهـا بقلبـى الـذى تسـكنه.. أراهـا بقلبـى الجميـل الـذى لا يـرى إلا الجـمال.. وكان ذلـك مـن أخطـاء قلبـى التـى أنكرها عليـه عقـلى.

أزاد عقـلى مـن قيـده عـلى قلبـى بعـض الشـئ.. فأخـذتْ مـى تصغـر فيـه شـيئاً فشـيئاً.. حتـى أصبحـتْ صـورة معلقـة عـلى جـدران فـؤادى فى مواجهـة أبوابـه.

صغـرتْ مـى .. لكـن قلبـى لم يصغـر معهـا مثلـما كـبر معهـا.. و لم تكـن تلـك نهايـة الأخطـاء.. بـل تعـددت أخطـاء قلبـى و تنوعـت.. تعـددت بعـدد مـن طعنـوه.. و تنوعـت بأوصـاف مـن خدعـوه..

جـاءت الطعنـات.. تـارة مـن الأصدقـاء الذيـن خانـوه و باعـوه.. و تارة من الأهل و الإخوة الذيـن خذلوه.. و ظل القلب يـمارس أخطـاءه التـى ينكرهـا عليـه العقـل.. فاضطـر عقـلى إلى فـرض الإقامـة الجبريـة عـلى قلبـى و حبسـه بـين الضلـوع..

أطلقـت لحيتـى.. و داومـت فى عبادتـى.. و اعتزلـت الدنيـا بإرادتـى.. و بطريقتـى.. كنـت أعيـش بـين النـاس بجسـدى.. لكـن قلبـى و روحـى.. وحيـدان فى صحـراء مقفـرة.

و اسـتمرت القطيعـة بـين عقـلى و قلبـى حتـى تلـك اللحظـة.. لحظـة اسـتدارتى أمـام معمـل المدرسـة لأرى مريـم و هـى تهبـط ثـلاث درجـات مـن السـلم ثـم تقـف فى مواجهتى.. أشـار مسـتر محسـن و هـو يقـول:

– ميس مريم..

قلت وانا أومأ برأسى إحتراماً:

– اهلا و سهلا ميس مريم..

فتابع مستر محسن.. وهو يشير إلي:

– مستر أحمد.. مدرس الفيزيا الجديد..

نظـرتْ مريـم فى عينـىَ بدهشـة.. ثم مـدت يدهـا لتصافحنى و هــى تقول:

– اهلا مستر أحمد..

نظـرت فى عينيهـا .. أحسسـت أنهـا تختـبر أمـراً مـا .. مـددت يـدى.. أمسـكت بيدهـا.. أحسسـت ببرودتهـا.. و قالـت وهـى تصا فحنى :

– على فكرة... أنا اسمى ميريام .. مش مريم

و ابتسمتْ.

***

«فى الليـل عـلى فـراشى طلبـت مـن تحبـه نفـسى، طلبتـه فمـا وجدتـه. إنى أقـوم و أطـوف فى المدينـة، فى الأسـواق، وفى الشـوارع، أطلـب مـن تحبـه نفـسى، طلبتـه فمـا وجدتـه. وجـدنى الحـرس الطائـف فى المدينـة، فقلـت: « أرأيتـم مـن تحبـه نفـسى؟ «. فمـا جاوزتهـم إلا قليـلاً حـتى وجـدت مـن تحبـه نفـسى فأمسـكته و لـم أرْخـه، حـتى أدخلتـه بيـت أمـى وحجـرة مـن حبلـتْ بى . أحلفكـن يـا بنـات أورشـليم بالظبـاء، وبأيائـل الحقـل ألا تيقّظـن و لا تنبّهـن الحبيـب حـتى يشـاء»

(نشيد الأنشاد ٣ : ١ – ٥)

(٢)

ميريام

استيقظت من نومى على صوت جرس الهاتف المحمول .. أمسكت به.. قلت وأنا شبه نائمة:

- مورنينج حبيبى..

- صباح الخير يا حبيبتى.. يالـلا .. اصحى بقى علشان تروحى المدرسة.

- كنت رائع امبارح...

- امبارح بس؟!!!

- لأ طبعا.. انت على طول رائع .. بس هتبقى أروع لو سبتنى نص ساعة كمان.

- قومى يا مارى.. بلاش دلع.. الساعة قربت من ٧ .. كده هتتأخرى على شغلك.. و أنا كمان عاوز أستعد علشان أروح المكتب.

- ماشى يا قمر.... إممممممه.

كان ذلك هو شريف .. حبيبى.. و تلك هى عادته.. أن يوقظنى صباحاً حتى لا أتأخر عن عملى بالمدرسة.. لكن ذلك اليوم.. كان مختلفاً.. كان أول أيام العام الجديد.. و كنا قد سهرنا ليلة رأس السنة معا.. السهر بالنسبة لى.. يعنى الحادية عشر مساءً على الأكثر، فعند العاشرة تهاتفنى أمى.. و لا تكف عن مهاتفتى كل خمس دقائق تقريباً حتى أعود الى البيت.. و تكون ليلة ليلاء إذا تأخرت عن ذلك..

مع أنى جاوزت الثلاثين من عمرى.. و أسكن فى حى الدقى.. أحد أرقى أحياء الجيزة.. لكن أمى لا تنسى أبداً.. أنها صعيدية.. مع أن أبى كان صعيدياً هو الآخر.. من أسيوط.. إلا أنه فى الغالب ما يكون الآباء الصعايدة.. أكثر حنواً على البنات من الأمهات الصعايدة.. لكن.. أنا أعذرها.. لقد توفى أبى و أنا فى الثانوية العامة.. و تولت هى رعايتى.. فكانت لى الأم و الأب.. غير أن أبى كان حنوناً.. رقيقاً.. محبوباً من كل الذين يعرفونه.. كان يأخذنى

معـه فى كل مـكان يذهـب إليـه.. فأنـا وحيدتـه.. لم يتعامـل معـى عـلى أنـى بنـت.. لا زلـت أذكـر عندمـا كان يصطحبنـى لزيـارة بعـض أصدقائـه.. أو عندمـا كنـت أذهـب إليـه فى عملـه حـين أخـرج مـن المدرسـة مبكـراً.. فيـدور بى بـين المكاتـب.. و يعـرّف كل زملائـه بـى ثـم نعـود معـاً.. أتعلـق بيـده.. و نمزح و نمـرح طـول الطريـق و يدعونـى لتنـاول الغـداء فى أى مطعـم أو نشـترى فاكهـة ونعـود إلى البيـت.. كانـت أسـعد أيـام حياتـى.. كان أبـى.. و كان أخـى.. لم أشـعر معـه بـأى غربـة أو حـرج مـن شـئ.. كنـت أحكـى لـه كل شـئ.. حتـى معاكسـات الأولاد لى عنـد خروجـى مـن المدرسـة.. كان يبتسـم و يقـول:

– ما ...همَ معذورين برضه يا حبيبتى..

ثـم ينصحنـى ألا أقـع فى فخاخهـم .. و أن أحكـى لـه كل شـئ.. و كان أحيانـاً يأخذنـى لأجلـس معـه و أقرانـه عـلى المقهـى.. خاصـة بعـد مرضـه.. كنـت لا أفارقـه فى تلـك الأيـام.. و يبـدو أنـه كان يريدنـى أن أبقـى بجـواره أطـول وقـت ممكـن قبـل أن... قبـل أن يرحـل ..

رحـل أبـى و تركنـى فى الوقـت الـذى كنـت أحـوج مـا أكـون إليـه فيـه.. كنـت عـلى أبـواب الجامعـة.. و فى الجامعـة..

لابـد للبنـت مـن صديـق.. فـإن لم تجـده فى البيـت.. بحثـت عنـه بـين المدرجـات.

رحـل أبـى و تركنـى و أمـى.. التـى لم تكـن أبـداً.. مثـل أبـى.. إنهـا طيبـة.. و تحبنـى.. وتخـاف علـىَ.. لكنهـا لم تسـتطع أن تمـلأ الفـراغ الـذى تركـه أبـى داخـل قلبـى و فى حياتـى..لم اسـتطع التحـاور معهـا فى الكثـير مـن مشـاكلى أو همومـى.. كـما كنـت أصنـع مـع أبـى.. و كأى أم.. تـرى ابنتهـا تكـبر أمامهـا وليـس لهـا أب أو أخ.. كان كل همهـا أن أتـزوج كـى تطمئـن علـىَ.. ضقـت ذرعـاً بإحساسـى أننـى عـبء عليهـا.. أو أننـى هـم تحلـم بالتخلـص منـه.. أنـا أحبهـا.. و لا أقـوى عـلى إغضابهـا.. و لا أحـب الإصطـدام بهـا.. لذلـك كنـت أقـضى أغلـب الأوقـات بعيـداً عـن البيـت و أتحجـج بالمحـاضرات و سكاشـن العمـلى.. لم أكـن أمكـث فى البيـت طويـلاً، إلا حـين يزورنـا أحـد الأقـارب الذيـن يأتـون مـن أسـيوط « كل حـين و مـين «.. فقـط ليمطرونـا بوابـل مـن النصائـح.. هـذا لا يصـح.. ده مـا ينفعـش.. ده عيـب.. و آخـر الزيـارة.. يقدمـون العـرض الدائـم. ابـن عمـك يريـدك.. أو ابـن عمتـك عـاوز يخطبـك... تلـك كانـت علاقتنـا بالأهـل والأقـارب.

رحـل أبـى و تركنـى للجامعـة.. و إيـاك أن تظـن أن الجامعـة مجـرد مـكان، فقـط، لتحصيـل العلـوم والآداب و المعـارف.. الجامعـة سـوق.. تبـاع فيـه أشـياء كثـيرة و تشـترى .. فى الجامعة شربـت أول كأس، و فى الجامعــة كانــت أول قبلــة.. تعرفــت عـلى الكثيريـن.. و تـودد إلىَ الكثـيرون باسـم كل معنـى نبيـل.. و لكنهـم كانـوا كالشـياطين.. أو مثـل الكائنـات الفضائيـة التـى نراهـا فى المسلسـلات الأجنبيـة.. مـن الخـارج يبـدون كالإنـس و لكنهـم مـن الداخـل أفاعـى و حيـات.. و فى المرحلـة الجامعية كانـت أول مضاجعـة.. هكـذا فقـدت كل شـئ.. أو بمعنـى أدق .. كل شـئ لـه قيمـة.

تخرجـت مـن الجامعـة وقـد فقـدت الكثـير.. و لكننـى كنـت قـد تعلمـت أيضـاً أشـياء كثـيرة.. كان أهمهـا.. ألا أثـق بأقـوال أو أفعـال بنـى البـشر، لأن أقوالهـم و أفعالهـم، هـى مـا يريـدون أن نسـمعه أو نـراه منهـم.. لكـن الـذى فى قلوبهـم و عقولهـم.. تفضحـه عيونهـم.. تعلمـت أن أقـرأ العيـون.. فعـين المـرء مـرآة لمـا فى قلبـه.. بروجيكتـور يعـرض مكنـون القلـوب، لكـن بلغـة لا يفهمهـا الكثـيرون.

بعـد الجامعــة.. عملـت فى الدعايـة لـدى إحـدى شركات الأدويـة.. مهنـة شـاقة.. تتعـرض خلالهـا المـرأة إلى مضايقـات

عديـدة، و مشـاكل كثـيرة.. سـواء مـن الزمـلاء فى العمـل أو مـن بعـض الأطبـاء غـير المحترمـين.. أو مـن بعـض الصيادلـة الجشـعين.. لكنهـا لهـا فوائـد عديـدة.. تكسـبك خـبرات التعامـل مـع النـاس عـلى إختـلاف ثقافاتهـم و أفكارهـم.. و تجعلـك تتقـن لغـة العيـون تمامـاً.. و عـلى المستوى الشـخصى.. فقـد كانـت، بالنسـبة لى، لهـا فائـدة أخـرى عظيمـة.. و هـى أننـى كنـت أمكـث السـاعات الطويلـة بعيـداً عـن البيـت بحجـة العمـل و زيـارات الأطبـاء التـى لا موعـد لهـا.

هكـذا مـرت السـنون مـن حياتـى.. مملـوء بالأحـداث و الأشـخاص.. لكنهـم، جميعـاً، كانـوا فرينـدز.. مجـرد فرينـدز.. لا أب.. لا أخ.. لا صديـق.. لا حبيـب.. إلى أن قابلـت شريف.. حبيبـى.. فتـاى الأسـمر.. أعنـى أن لونـه أسـمر .. ليـس قمحـى.. ولا زنجـى.. و لكنـه أسـمر.. و لسـمرة الرجـال بريـق و لمعـان خـاص فى عينـى المـرأة.. ربـما كانـت المطربـة صبـاح عـلى حـق عندمـا قالـت « أصـل سـماره نـص جمالـه «.. أمـا النصـف الآخـر فقـد كان حبـه وإحتـواءه لى.. و عطفـه علىَ واهتمامـه بـى و كرمـه معـى.. ثـم رجولتـه.

تعرفـت عليـه عندمـا كنـت أعمـل فى الدعايـة.. يومهـا كنت فى زيـارة لصيدليـة قريبـة مـن مـكان سـكنه فى شـارع بالقـرب

من ميدان الجيزة.. كنت مضطرة إلى عمل طلبية أدوية كبيرة و سريعاً.. ذهبت إلى تلك الصيدلية التى كنت أذهب إليها قبل ذلك مع المشرف على عملى.. لكن تلك المرة، ذهبت إليها بمفردى.. كان صاحبها صيدلانياً جشعاً.. من الذين يطلقون لحاهم ليخفوا بها تذؤبهم.. و لتضفى عليهم وقاراً يوارون به حقارتهم.. كانت نظراته الوقحة تطاردنى.. حتى و أنا مع المشرف.. لكن وقاحته ازدادت فى تلك الليلة.. و لما أحس تجاهلى له.. و احتقارى لموقفه و لشخصه.. افتعل صداماً بيننا و أخذ صوته يعلو و ينطق بألفاظ نابية و جارحة.. هممت بالخروج مسرعة..فإذا بشريف.. يصيح فى ذلك الصيدلانى و يوبخه على طريقته فى التعامل مع السيدات.. و يعيب عليه تدينه و لحيته.

شعرت ببعض الحماية.. فاستجمعت أعصابى و بدأت أخرج بهدوء و لكننى كنت أبكى.. رفض شريف أن أقود سيارتى و أنا على تلك الحال.. و أصرَ أن أجلس على المقهى المجاور للصيدلية لأشرب كوباً من الليمون حتى تهدأ أعصابى.. أحضر كرسيين، و جلسنا جانباً.

ربما الكثيرون من الرجال الشرقيين كانوا سيفعلون مثل ما فعل شريف.. لكن العيون لا تكذب.. فعنوان

شـخصية كل واحـد منـا مكتـوب خلـف بؤبـؤ عينيـه.. فقـط تحتـاج إلى التدقيـق فى عينـى الشـخص لتقـرأه.. ذلـك أفَـاق.. و هـذا انتهـازى.. وصـولى.. حقـير.. و هكـذا.. لكننـى قـرأت فى عينـى شريـف.. صـادق.

أكثـر مـن خمـس سـنوات مـرت علينـا حتـى الآن.. أحبنـى و عشـقته.. أعطانـى الحنـان و الأمـان فلـم أبخـل عليـه بشـئ.. قلبـى.. عقـلى.. مشـاعرى.... و جسـدى.

كل يـوم يمـر بنـا كان حبـى لـه ينمـو.. و تعلقـى و إحتياجـى لـه يـزداد، حتـى أصبـح شريـف كل حياتـى.. و فى نشـوة الحـب .. نسـيت أنـه لكـى نسـتمر معـاً، لابـد أن نتـزوج.. و بعـد أن تخطيـت الثلاثـين مـن عمـرى، أصبـح صـوت أمـى ناقوسـاً يـدق فى أذنـىَ كل يـوم فيرتجـف لـه قلبـى.. « لازم تتجـوزى «...» انتـى مالكيـش أخ ياخـد بالـه منـك «...» عـاوزه اطمـن عليكـى قبـل مـا أمـوت «...» انتـى كبرتـى و أنـا تعبـت «.

هـل يمكـن أن أفقـد شريـف يومـاً مـا؟!!.. هـل لأنـى مسـيحية و هـو مسـلم فقـد كتـب علينـا الفـراق؟!!.. فى ذلـك اليـوم أول أيـام العـام الجديـد.. و بعـد أن أيقظنـى شريـف و تجهـزت للخـروج إلى العمـل بالمدرسـة.. مـررت عـلى أمـى فى

حجرتها.. قبلتها و قضيت لها بعض الحاجات.. و عندما هممت بالخروج.. قالت:

– عمك و ابنه هييجوا من البلد النهارده..

قلت وأنا أكتم إنفعالى.. فأنا أفهم ما وراء ذلك الخبر..

– أهلا و سهلا.. بس أنا عندى دروس خصوصية بعد المدرسة و مش عارفه هاخلص إمتى..

– ما تلغى الدروس دى النهارده !!..

احسست بإنفعالى يزداد.. و لم أشأ أن اصطدم بها صباحاً.. قلت و أنا أتناول حقيبتى من على سريرها و انطلق:

– امتحانات التيرم باقى عليها أيام.. و مش هينفع ألغى حاجة.. باى بقى علشان أنا أتأخرت على الشغل.

و انطلقت إلى العمل و الدماء تغلى فى رأسى.. كانت المدرسة قريبة من سكنى.. ففضلت أن أذهب مشياً لعلي أهدأ قليلاً.

ماذا أفعل؟؟.. أمى، أبدا، لن تقبل شريف زوجاً لى.. فقط لأنه مسلم.. لقد مرضتْ و لازمتْ الفراش و فقدتْ

الكثير مـن عافيتهـا عندمـا ألمحـت لهـا منـذ مـدة.. أننـى أحـب شـاباً مسـلماً.. إنهـا لا تعلـم حجـم إرتباطـى بـه.. و لا المـدى الـذى وصلـتْ إليـه علاقتنـا.. اضطـررت حينهـا أن أخبرهـا أننـى قـد صرفـت الأمـر عـن ذهنـى.. لكننـى أظـن أن مرضهـا الحـالى.. سـببه أنهـا تشـك أننـى مازلـت عـلى علاقـة بـه.

لا يمكــن.. و لا أتصــور أن أفقــد شريــف.. و لا يمكــن أن أظـل أكـذب عـلى أمـى.. هـى لـن تقبـل بـه زوجـاً لى.. و عائلتـى كذلـك.. إنهـم لا يفهمـون معنـى أن تحـب.. ينظـرون للأمـر مـن ناحيـة اجتماعيـة.. و نظـرة النـاس إليهـم.. و يضفون عـلى موقفهـم ذلـك، قداسـة دينيـة.. و هـل يقـف الديـن أمـام الحـب؟.. و هـل الديـن إلا الحـب؟.. ليـت أبـى كان حيـاً.. كنـت سـأحكى لـه.. و أكيـد.. كان سـيتفهمنى.. لقـد كان مختلفـا.. محبـاً.. عطوفـاً.. ليـت كان لى أخ.. كنـت اعتمـدت عليـه فى تأييـد موقفـى و دعمـى أمـام أمـى و أسرتـى.. ليـت كان لى صديـق.. استشـيره فى أمـرى.. و ينصحنـى بـماذا أفعـل.. أبثـه حزنـى وهمومـى و يسـاعدنى عـلى الخـروج مـن أزمتـى..

شريـف لا يصلـح أن يكـون صديقـاً لى و خاصـة فى تلـك المسـألة.. إنـه طـرف معـى فيهـا.. أنـا أريـد شـخصاً حياديـاً.. و لكنـه يعـرف معنـى الحـب.. و يكـون عاقـلاً.. مجربـاً.. و بالطبع

مخلصاً و أميناً.. أنا فى حاجة إلى صديق.. و لكن أين أجده؟.. كل من حولى ذئاب.. و إن ارتدوا ملابس الحملان..

وصلت إلى المدرسة شاردة.. مجهدة.. ليس من السير و إنما من التفكير.. و طبعاً متأخرة عن ميعاد العمل.. وقّعت أمام السكرتيرة، فنادى علىَ المدير و كان باب حجرته مفتوحاً.. ذهبت إليه و حييته.. كان معتاداً على ملاطفتى.. و لكنه لمس شرودى و إجهادى فاختصر اللقاء بعد أن سألنى عن أول حصة عمل لى.. أخبرته أنها الثانية.. فقال:

- طيب.. روحى لمستر محسن فى المعمل علشان يعرفك على مستر احمد مدرس الفيزيا الجديد.. و اشربى قهوتك.. و فرفشى كده.. علشان شكلك ما ينفعش تدخلى بيه على الأولاد..

ابتسمت له و شكرته على لطفه.. و انطلقت إلى المعمل.. لم أسلك الطريق المعتاد من خلال فناء المدرسة، و إنما سلكت طريقاً يربط بين مبنى الإدارة و المبنى الذى يضم المعامل و كان يفضى إلى الطابق الأعلى لطابق المعامل.. لم أكن فى حالة تسمح لى بأن أفكر من يكون مستر أحمد هذا؟.. فلم أجهز أى أفكار مسبقة عنه واعتمدت على خبرتى فى التعامل مع الذئاب.

كنت أنزل من على السلم، حين ناداني مستر محسن ليعرفني على الزميل الجديد.. واستدار أحمد... لمحته بعيني و أنا أنزل الدرجات الثلاث التي كانت تفصلني عنهم.. كان بوسعي أن أقف بعيداً عنهم.. أو أن أقف بين محسن و أيمن.. لكن.. تلك اللمحة الخاطفة كانت كافية لأن أقرر أن أقف في مواجهته و قريباً منه جداً.. شئ ما في أحمد هذا، يجذبني إليه.. يدعوني للإقتراب منه... وجهه شفاف لدرجة أنك ترى قلبه من صفحة وجهه.. الطيبة.. الوداعة.. الصدق.. و ذلك الإحساس بالراحة و الأمان عندما تنظر في ذلك الوجه.. شخص عجيب.. لا يمكن أن يكون إنساناً عادياً.. أو على الأقل.. إنساناً من زماننا هذا.. زمن الذئاب و الحيات.. هل أنا مخطئة فيما أراه في ذلك الوجه؟.. أم أنه بارع إلى هذا الحد من الخداع؟.. لولا لحيته، ما ظننت فيه ذلك الظن السئ.. أو ربما ان لم توجد لوضح وجهه أكثر فقرأت ما فيه أفضل.. لكن لماذا أحير نفسي؟.. يكفي أن أنظر في عينيه.. لن يستطع أن يخفي عني ما وراء بؤبؤيه.. فالعيون تظهر المكنون..

شـىء مذهـل.. عينـاه.. عندمـا نظـر إلىَ وهـو يحيينـى لم أكن فى حاجـة إلى التدقيـق فيهـما لأقـرأ مـا بداخلهـما.. يكفـى أن تنظـر فى مقلتيـه لترى..محـب... حنـووون... صـاااادق.. حزين.

أجـل .. لابـد أن يكـون حزينـاً.. لأن مثـل هذا.. برغـم فهمه للنـاس مـن حولـه.. إلا أنـه لا يعاملهـم بعقلـه وإنـما بقلبـه..

شـىء واحـد يقـف بينـى و بينـه.. لحيتـه .. لمـاذا؟!!!... و إلى أى عمـق تمتـد داخلـه؟!!!.. مـددت يـدى لأصافحـه.. فأجاب عـلى تسـاؤلاتى كلهـا عندمـا مـد يـده يصافحنـى.. حينهـا.. سرتْ دفقـة مـن سـخونة يـده.. غمـرتْ قلبـى بالـدفء فـذاب جليـد القلـق بداخلـه.. واحسسـت بالراحـة والهـدوء.. و رأيت وجـه أبـى فى ملامـح أحمـد... فابتسـمت لـه..

***

«و لكــن ويــل لكــم أيهــا الفرّيســيون! لأنكــم تعــشرون النعنـع و السـذَاب و كل بقـل، وتتجـاوزون عـن الحـق و محبـة الله. كان ينبغــى أن تعملــوا هــذه و لا تتركــوا تلــك»

«لوقا ١١ : ٤٢»

(٣)

ميشيل

«طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة المنافقين، و فى طريق الخطاة لم يقف. وفى مجلس المستهزئين لم يجلس. لكن فى ناموس الرب إرادته، و فى ناموسه يلهج نهاراً وليلاً. فيكون كالشجرة المغروسة على مجارى المياه، التى تعطى ثمرها فى حينه. وورقها لا ينتشر، و كل ما يصنع ينجح فيه، ليس كذلك المنافقون، ليسوا كذلك . لكنهم كالهباء الذى تذريه الريح عن وجه الأرض، فلهذا لا يقوم المنافقون فى الدينونة، و لا الخطاة فى مجمع الصديقين . لأن الرب يعرف طريق الأبرار، أما طريق المنافقين فتباد ...

من الخطايا المستترة يا رب طهرنى، و من الغرباء احفظ عبدك حتى لا يتسلطوا علىَ، فحينئذ أكون بلا عيب و أتنقى

مـن خطيـة عظيمـة . و تكـو ن جميـع أقـوال فمـى و فكـر قلبـى مرضيـة أمامـك فى كل حـين . يـارب أنـت معينى و مخلـصى ...»

انتهيــت مــن صلاتــى.. فاســندت رأســى إلى الحائــط و رحــت أتأمــل فى كلماتهــا.. ســمعت طرقــات عــلى البــاب.. فناديــت عــلى الطــارق:

- اتفضل .. باب القلاية مفتوح..

و مـا أن رأيـت الطـارق عـلى البـاب يدخـل، حتـى انتفضـت واقفـاً.. و جريـت أقبـل يـده.. وقلـت:

- ســيدنا!!.. أهــلا و ســهلا.. طيــب قداســتك ليــه مــا بعتليــش و أنــا كنــت جيــت لقداســتك؟!!..

تقـدم سـيدنا ناحيتـى مبتسـماً.. ثـم ربـت عـلى كتفـى و راح يتأمـل القلايـة و يقلـب نظـره يمينـاً و يسـاراً .. ثـم قـال:

- القلايـة دى... أنـا قضيـت فيهـا سـنين طويلـة .. كانـت أيـام صعبـة عـلَى جـداً ...إنـك تنتـصر عـلى الشـيطان بإنـك تقهـر جسـدك و شـهواتك.. شـئ مـش سـهل.. شـئ مـش أى حـد يقـدر عليـه. (التفـت إلَى سـيدنا) .. ثـم تابـع: تعـرف إن بعلزبـول .. رئيـس الشـياطين بنفسـه... جربنـى هنـا؟!!.. هنـا فى القلايــة دى.

ارتعـد جسـدى عنـد ذكـر بعلزبـول.. و بـدا عـلى وجهـى القلـق و الإضطـراب.. لكـن سـيدنا ابتسـم ثانيـة.. و ربـت عـلى كتفـى مـرة أخـرى.. و قـال:

- كانـت تجربـة صعبـة و قاسـية.. لكـن الـرب كان معايـا.. و انتـصرت فيهـا.. بـس اوعـى تتخيـل إنـى انتـصرت بالصـوم و الصـلاة فقـط.. لأ.. عـاوز أقـول لـك إن الصـوم و الصـلاة .. مجـرد درع نحتمـى وراه و نـدارى بيهـم إننـا عريانـين .. لحـد مـا المحبـة تتملـك مـن قلوبنـا .. المحبـة هـى الـرداء الحقيقـى الـلى يسـترنا و يحمينـا مـن حـر الجحيـم... مـن غـير المحبـة.. إحنـا عريانـين.. مهـما كنـا لابسـين.

ثـم اتجـه سـيدنا ناحيـة بـاب القلايـة.. ولم يكـد يصـل إليـه حتـى اسـتدار و مـدَ يـده لى بورقـة ثـم قـال:

- انزل للكاتدرائية.. و هات لنا الحاجات دى..

ثـم خـرج سـيدنا.. قـرأت الورقـة و انطلقـت إلى العباسـية.. كنـت أسـير فى شـارع رمسـيس.. أنظـر إلى وجـوه النـاس الذيـن يملـؤن الشـارع.. أراهـم يبتسـمون.. و البعـض يضحكـون.. و آخـرون يـوارون وجوههـم عنـى .. أمـا أنـا فقـد كنـت أشـعر فى داخـلى بالفخـر و الإعجـاب.. إننـى راهـب وهبـت نفسـى منـذ سـنوات لخدمـة الـرب.. أجتهـد فى صلاتـى.. أحيانـاً أصل

الليـل بالنهـار صومـاً.. لا أنـام إلا قليـلاً.. وقتـى كلـه فى عبـادة و قـراءة و صـلاة و تأمـل.. مـن مِـن هـؤلاء النـاس الذيـن فى الشـارع مـن حـولى يحبـه الـرب كـما يحبنـى؟

استوقفنى بعـض الشـباب و هـم يضحكـون و ينظـرون إلَىَ بسـخرية.. صرخـت فيهـم:

- إيه قلة الأدب دى؟!!.. هو انتوا ما بتشوفوش؟

أجابنى أحدهم ساخراً بقوله:

- الحقيقـة .. مـن ناحية الشـوف .. فاحنا شـايفين كل حاجه..

و انفجروا جميعا بالضحك.. تركتهم و أنا أغمغم:

- قلـة أدب .. و قلـة حيـاء .. سـاقطين .. الشـيطان ملـك قلوبهـم و مـا بقـوش عارفـين قيمـة رجـال الديـن..

و انطلقـت فى اتجـاه الكاتدرائيـة.. اقتربـت مـن بابهـا أريـد الدخـول.. و مـا أن رأتنـى إحـدى السـيدات.. حتـى أخـذت تـضرب وجههـا و تـدارى عينيهـا و تـصرخ:

- إيـه ده؟!!.. ارجـع.. ارجـع.. مـش هتخـش بيـت ربنـا وانـت كـده.. ارجـع.. يـا أبونـا.. الحقنـا يـا أبونـا..

و أنـا أقـف مذهـولاً.. حائـراً.. مـا الـذى دعـا تلـك السـيدة إلى مـا صنعتـه؟!!.. كيـف تمنعنـى هـذه المـرأة مـن دخـول الكاتدرائيـة؟.. هـل يعقـل أن أمنـع.. و أنـا راهـب .. مـن دخولهـا؟! عجيـب مـا يحـدث..

و جـاء أحـد الكهنـة مسرعـاً عـلى صرخـات المـرأة و هـو يجـرى مسرعـاً.. نظـر إلىّ.. و جعـل المـرأة خلفـه.. ثـم أمسـك بالصليـب المعلـق عـلى صـدره و رفعـه واثقـا فى وجهـى .. و راح يتقـدم نحـوى و هـو يقـول:

- ارجـع .. مـش هتدخـل بيـت ربنـا .. مفيـش شـيطان لـه مـكان هنـا .. ارجـع .. ارجـع..

أخـذ يتقـدم نحـوى .. و أنـا أتقهقـر فـى ذهـول مبتعـداً عنـه .. و رأيـت نـاراً تمتـد إلى وجهـى.. رحـت أبعدهـا بيـدىّ عـن وجهـى.. و أبعـد رأسـى عنهـا يمينـاً و يسـاراً .. حينهـا فقـط .. وقـع بـصرى عـلى جسـدى.. و رأيتنـى!!.. يـا لهـول مـا رأيتنـى عليـه.. إننـى عريـان.. صرخـت و أنـا مازلـت أحـاول إبعـاد النـار عنـى... لا .. لا ..

- ميشيل .. ميشيل.. فى ايه يا ابنى؟!!..

انتبهـت مـن نومـى فزعـاً عـلى صـوت مدحـت.. زميـلى فى الديـر.. يوقظنـى و يقـول:

- إيه يا ابنى.. انت كنت بتتخانق والا إيه؟!!..

- أنا فين؟؟

- نعم؟!!... فين ايه؟؟؟

- هو أنا مش عر...

و نظـرت إلى ملابسـى.. توقفـتْ الكلمـة عـلى طـرف لسـانى.. و أدركـت أنـى كنـت أحلـم..

- فى ايه يا ميشيل .. مالك؟

- لا أبدا.. مفيش حاجه.. مفيش حاجه..

وأحسسـت بجفـاف شـديد فى حلقـى.. شربـت كـوب مـاء كان بجـوارى.. و اعتدلـت فى مكانـى فبـدأ مدحـت يشـعر ببعـض الإطمئنـان عـلىّ.. قـال:

- أنـا خبطـت عـلى البـاب كـذا مـرة.. و لمـا ماردیتـش دخلـت.. مـا أنـا عـارف إنـك بتسـيب بـاب القلايـة مفتـوح.. بـس يظهـر إنـه كان حلـم صعـب شـوية!!

– مـا تشـغلش بالك.. كنت عـاوز ايه؟.. قصـدى .. فى ايه؟..

ابتسم زميلى.. و قال:

– سـيدنا عـاوزك.. يالـلا قـوم.. اغسـل وشـك كـده و حصلنـى..

نهضـت.. و انطلقـت إلى سـيدنا بعـد أن أصلحـت هندامـى.. سـيدنا رجـل هـادئ.. وديـع.. مسـالم.. حكيـم.. قليـل الـكلام.. و كذلـك كانـت حجرتـه التـى يديـر مـن داخلهـا الديـر.. كانـت قليلـة الأثـاث.. فقـط.. مكتـب يحيـط بـه كرسـيان.. أحدهمـا لـه.. يجلـس عليـه.. والآخـر فى الجهـة المقابلـة ليجلـس عليـه ضيفـه.. لا شـئ آخـر.. إلا إذا اعتبرنـا الحصـيرة التـى عـلى أرضيـة الحجـرة مـن الأثـاث.. و يبـدو أن سـيدنا يسـتعملها كسريـر.. كان زاهـداً حقـاً فى متـع الدنيـا.. إلا متعـة واحـدة.. القـراءة.. لقـد خلـت حجرتـه مـن الأثـاث لأن الكتـب قـد اسـتوعبت جميـع أركانهـا.. دخلـت عليـه .. حييته.. تلقانـى بوجهـه المبتسـم دائـماً.. و أخبرنـى أننـى يجـب أن أتجهـز للذهـاب إلى الكاتدرائيـة بالعباسـية.. كان عيـد القيامـة المجيـد قـد اقـترب موعـده.. و كنـا فى الديـر.. سنشـارك فى ترتيبـات الكنيسـة للإحتفـال بذلـك العيـد.. و قـد تـم اختيـارى لأنـوب عـن الديـر فى مناقشـة تلـك الترتيبـات..

و أثنـاء لقائـى بـه.. حدثنـى سـيدنا عـن عيـد القيامـة.. و كيـف أن ذلـك اليـوم يذكرنـا .. دائـماً.. بانتصـار الإنسـان عـلى كل قـوى الـشر فى الدنيـا و المتمثلـة فى المـوت الـذى كان نتيجـة للخطيـة.. خطيـة آدم التـى لم تكـن سـبباً فقـط فى خروجه مـن الجنـة.. لكنهـا أيضـا تسـببت فى الإنفصـال بـين الله وبـين آدم وجميـع بنـى البـشر.. لم يعـد آدم.. وكذلـك أبنـاؤه مـن بعـده.. طاهريـن.. أو خيّريـن .. أو نورانيـين.. لكنهـم أصبحـوا شريريـن.. سـاقطين.. لذلـك.. كانـت الأرض أكثـر ملائمـة لهـم مـن الجنـة.. فهبطـوا إليهـا.. لم يكـن هبـوط آدم إلى الأرض و تركـه للجنـة هبـوط مـكان فقـط.. بـل كان هبـوط مكانـة أيضـاً.. هبـوط فى طبيعتـه التـى تدنسـت بالخطيـة و أصبحـت محـلاً للـشرور..

و عيـد القيامـة .. يذكرنـا أن إرتفـاع يسـوع على صليبـه.. كان علامـة عـلى رفْعه للإنسـان من دنـس الأرض و أوحـال الخطية.. إلى علـو الطهـر و النورانيـة.. و ليعلمنـا أنـه.. إذا كان الإنسـان.. متمثـلاً فى يسـوع قـد انتـصر عـلى مـوت الخطيـة.. و قيـد الشـيطان بعلزبـول بالأغـلال.. فـإن كل إنسـان يسـتطيع قهـر بعلزبـول بداخلـه.. و سـحق الأفعـى التى تمـلأ قلبـه و الإنتصار عـلى شـهواته و رغباتـه و أحقـاده و أنانيتـه.. لينعـم بالمحبـة..

.. لكـن .. لمـاذا الكاتدرائيـة؟!!.. الحلـم!!!.. ألم أحلـم أنـى كنـت ذاهبـاً إلى الكاتدرائيـة عندمـا رأيـت.. مـا كان؟.. لـو لا أن سـيدنا أخبرنـى أنـى سأسـافر أولاً إلى كنيسـة بالدقـى.. و هـذا لم أره فى حلمـى.. لظننـت أن الحلـم سـيتحقق.. و أننـى سأسـير بـين النـاس عاريـاً..

لكـن قلبـى ارتجـف مـن كلام سـيدنا.. لذلـك قـررت أن أحادثـه بشـأن الحلـم.. فقلـت لـه:

- سـيدنا!!.. لـو تسـمح.. كنـت عـاوز أكلـم قداسـتك فى ... موضـوع كـده..

انتبه سيدنا و سألنى:

- موضوع إيه؟... خير؟!!..

- حلم ... شفته.. بس أنا قلقان بخصوصه..

- مـا تشـغلش بالـك باللى انـت شـفته.. المفـروض ان اللى يشـغلك هـو... انـت ليـه شـفته!!!...

وقعـتْ منـى كلـمات سـيدنا مثـل سـهم نفـذ إلى عقـلى.. كأنـه يعلـم مـا رأيـت فى حلمـى.. كلماتـه.. نظراتـه.. تشـى بأنـه يعـرف أنـى كنـت عريانـاً.. سـيدنا لـه مواهـب عديـدة.. يخرج الأرواح الشريـرة التـى تسـكن جسـد بعـض بنـى الإنسـان..

بكلمـة واحـدة منـه .. وربـما بنظـرة أو بإشـارة مـن الصليـب المعلـق عـلى صـدره.. لكـن أن يعـرف مـا رأيـت فى حلـم؟!!!.. هـذا أمـر بعيـد.

كان سـيدنا و هـو يحدثنـى.. يجلـس عـلى كرسـيه.. و كنـت أقـف أمامـه فى الجهـة المقابلـة مـن مكتبـه.. لكنـه نهـض واقفـاً.. تراجعـت خطـوة إلى الـوراء و أحنيـت رأسـى توقـيراً و تقديسـاً لـه.. قـال و هـو ينهـض:

– بص يا أنطونيوس...

ثم توقف سيدنا لحظة عن الكلام.. و سألنى:

– والا تحب أناديك باسمك القديم.. ميشيل؟

حقـاً.. كان اسـمى ميشـيل.. لكننـى بعـد أن رسـمت راهبـاً.. أصبـح اسـمى انطونيـوس.. ولم يعـد ينادينـى بميشـيل إلا قلـة مـن زملائـى أو أصدقائـى المقربـين.. إننـا بعـد أن نرسـم رهبانـاً.. نغـير أسـمائنا دلالـة عـلى أننـا قـد بدأنـا حيـاة جديدة.. حيـاة الطهـر و النقـاء و التجـرد.. حيـاة المحبـة.

لذلـك فنحـن الرهبـان .. نبـدأ حياتنـا الجديـدة باختيـار اسـم جديـد..

لماذا يذكرني سيدنا باسمي القديم و قد انمحى تماماً من حياتي إلا من ذاكرة بعض الزملاء؟!!.. إنني أيضا استخرجت بطاقة جديدة باسم انطونيوس.. اسمي الجديد لحياتي الجديدة..

بدت على وجهي علامات التعجب و الإستفهام.. و إذا كان سيدنا يستطيع أن يعلم أحلامي.. فلابد سيعلم ما يدور برأسي حول سؤاله!!..

تأخرت إجابتي.. و لم تفارقه ابتسامته.. ثم رماني بسؤال آخر.. قال:

– تعرف مين هو القديس انطونيوس؟

كان السؤال أبسط كثيراً من سؤال سيدنا الأول.. و رأيت أن في إجابتي السريعة عليه خروجاً من حرجي و حيرتي لسؤاله الأول.. قلت بسرعة:

– طبعا يا سيدنا.. القديس انطونيوس هو مؤسس.. و منظم.. و واضع قوانين حياة الرهبنة.. القديس انطونيوس هو سبب النعمة العظيمة اللي احنا فيها دي.

كان سيدنا قد دار حول المكتب دورة كاملة.. مر بي خلالها.. قال لي و هو يعاود الجلوس على كرسيه.. و قد ازدادت ابتسامته اتساعاً:

- لأ.. مش القديس انطونيوس السبب!!..

ارتسمت فى وجهى ملامح البله المغولى.. و كل علامات التعجب و الإستفهام... هزّ سيدنا رأسه .. و تابع كلامه قائلاً:

- السبب الحقيقى للنعمة اللى احنا فيها دى.. و حياة الرهبنة دى.. واحدة ست.. امرأة.. يمكن الكتير من الناس يظن فيها انها خاطئة أو على الأقل غير محتشمة.. و ده طبعا ما يرضيش ربنا.. لكنها كانت السبب فعلا..

و تابع سيدنا كلامه .. و أنا أسمع باهتمام:

القصة ببساطة و باختصار.. أن القديس انطونيوس كان بيتجول فى بلد كانت على البحر الأحمر.. و كان بيلف فى البلد يعلم الناس ازاى يصلوا.. و ازاى يصوموا.. و ازاى يحبوا ربهم.. و لما وصل للبحر بص شاف واحدة ست واقفة عند الميه بتغسل شوية حاجات لها.. و طبعا كانت كاشفه رجليها..علشان هدومها ما تتبلش.. قام القديس منادى عليها.. و قال لها : ينفع كده يا ست انتى؟.. يعنى تكشفى رجلك وفى رجاله ممكن يعدوا من جنبك فتكونى عثرة ليهم و عون للشيطان عليهم!!... الست بصتْ فى وجه القديس و قالت له: يعنى انت ضاقت بيك الدنيا خلاص و جاى تتعبد هنا فى وسط الناس .. اللى رايح

والـلى جـاى.. و الـلى بتغسـل أغراضهـا عنـد البحـر؟!!.. مـا الصحـرا أهيـه أمامـك مفيهـاش حـد.. مـا تـروح تعبـد ربنـا فيهـا براحتـك.. و محـدش هيزعجـك فيهـا.

و من يومها.. و بدأت النعمة اللى احنا فيها دى...

كنـت لا أزال واقفـاً.. اعتـدل سـيدنا عـلى كرسـيه و أسـند يديـه عـلى المكتـب.. أشـار إلىّ بالجلـوس.. فجلسـت.. فقـال:

– أكيـد انـت عـارف القصـة دى.. و كل الـلى بيقـرا فى كتـاب السنكسـار عـن سـيرة القديسـين عارفينهـا.. قصـة بسـيطة.. صغـيرة.. و فيهـا شـئ جميـل و عظيـم نتعلمـه منهـا..

ثم نظر إلىّ و أردف بسؤال:

تقدر تقول لى .. هو ايه؟

و كنـت متوقعـاً لسـؤال سـيدنا.. و أحببـت أن يـرى أننـى أعلـم المغـزى وراء سـيرة القديـس انطونيـوس.. بـدأت الإجابة واثقـاً مـن نفسـى و مـن فهمـى و اسـتيعابى لهـا.. قلـت:

– نفهـم يـا سـيدنا مـن سـيرة القديـس.. ازاى هـو كان حريـص عـلى منفعـة النـاس.. وأنهـم ينالـوا الخـلاص.. لأنـه كان بيعلـم النـاس و بيعرفهـم بيسـوع.. و ماسـبش فرصـة إلا وعلـم النـاس فيهـا.. حتـى المـرأة الـلى كانـت عـلى البحـر

بتغســل .. انتهــز الفرصــة وأراد أن ينصحهــا و يعلمهــا.. و علشــان إخلاصــه ده.. الــرب هــداه لهــذا الخــير العظيــم..

ابتسم سيدنا.. و قال و هو يرفع يديه مُهلَلاً:

- برافو.. رائع..

أحسســت بالفخــر.. و إعجابــى بنفســى.. فتابــع ســيدنا كلامــه بقولــه:

- كأنهــا موعظــة بليغــة.. أو إجابــة نموذجيــة عــلى ســؤال فى مــادة الديــن المدرســية..

اســقط فى يــدى.. و شــعرت بالخــزى و أطرقــت رأســى لأســفل.. فتابع ســيدنا كلامــه.. لم أنظــر إلى وجهه و هــو يتكلم.. لكننــى أحسســت أن إبتســامته قــد فارقتــه.. و ســمعته يقــول:

- محــدش فينــا بيســأل نفســه.. ازاى الســت دى.. الــلى مبناخــدش بالنــا منهــا و احنــا بنحكــى الحكايــة دى.. والــلى يبــان انهــا ســت بســيطة.. و عشــوائية فى تصرفاتهــا..و يمكــن البعــض منــا يكــوّن عنهــا صــورة ســيئة اثنــاء قراءتــه للقصــة.. محــدش منــا بيســأل.. ازاى الســت دى هداهــا ربنــا الى الــلى مــا هــداش اليــه القديــس انطونيــوس برغــم كل الصفــات العظيمــة والجليلــة الــلى انــت قلتهــا عنــه؟

محـــدش بيســـأل: يـــا تـــرى المـــرأة دى برغـــم بســـاطتها وعشـــوائيتها.. كانـــت مخلصـــة اد ايـــه؟.. أو يـــا تـــرى المحبـــة فى قلبهـا كان شـكلها ايـه؟.. أو أد ايـه علشـان ربنـا يهديهـا للخـير العظيــم ده؟...... مــش بالمظاهــر عــلى فكــرة... المحبــة دى.. داخـل القلـب.. و مبيشـفهاش غـير ربنـا.. افتكـر الفلـس الـلى غلـب الدنانـير.. أو الزانيـة التـى أحبـت كثـيرا..

كنـــت اســـتمع إلى ســـيدنا مذهـــولاً و هـــو يتابـــع حديثـــه ويقـــول:

و مـش يمكـن.. ان الشـيطان هـو الـلى وضـع السـت دى فى طريـق القديـس علشـان يتعثـر و ينشـغل قلبـه بيهـا و يقـع فى الغوايـة.. و يمكـن يقـع فى الخطيـة؟

اســتنكرت ذلــك الــكلام فى حــق القديــس.. فقاطعــت سـيدنا عـن غـير قصـد.. وأنـا مازلـت أطأطـأ رأسـى.. و قلت:

– لكنـه القديـس انطونيـوس.. معقولـه .. ممكـن يقـع فى الخطيـة؟!!

ردّ علىّ سيدنا فى هدوء:

– هـــو .. بقـــى القديـــس علشـــان ماوقعـــش .. و مـــش العكـس.. لكـن الـلى احنـا بنقولـه ده يظـل احتـمال قائـم..

واذا كان الاحتمال ده صحيح.. شوف بقى ازاى ربنا بيحول تجربة الشيطان للقديس الى سبب فى النعمة العظيمة دى.. اكيد السبب هو المحبة اللى كانت تملأ قلب القديس.. ابونا انطونيوس..

صمت سيدنا برهة.. فرفعت رأسى.. نظرت فى وجهه.. فإذ بابتسامته تكسو وجهه نوراً و هدوءاً.. نظر إلىّ.. و قال بصوت كله حنو و رقة:

- المحبة يا انطونيوس... المحبة!!

يالـلا.. قوم ارجع قلايتك.. و اجهز علشان بكره الصبح هتروح على الدقى.. و بعدين على الكاتدرائية.

و فى الصباح.. كنت داخل الاتوبيس المتجه إلى رمسيس.. طويلة هى المسافة التى سنقطعها.. و أغلبها فى صحراء واسعة باتساع الأفق.

تذكرت حديث سيدنا معى بالأمس.. كم هو حكيم!!.. و مختلف فى فهمه و تأمله للأشياء و الأحداث.. لابد أن قراءاته الكثيرة و المتنوعة وراء ذلك.. يوماً ما سأكون فى مثل حكمته.. بل يوماً ما سأرث الدير بدلاً منه.. و ربما أصل إلى ما هو أبعد.. ذلك حلمى الذى وهبت حياتى

لتحقيقه.. و لن أفشل هذه المرة.. أجل.. لن أفشل مرة أخرى.. كفانى فشلاً فى حياتى.

فى القرية.. و فى المراحل الدراسية الأولى.. كانت درجاتى جيدة.. ليس لأننى متميز أو لأننى نابه.. صحيح أننى لم أكن غبياً.. لكننى كنت لصاً.. كنت أجلس بجوار أكثر الأولاد فهماً و تميزاً.. أكمل منه ما ينقصنى.. كنت لص درجات.. أو أن شئت قل.. لص تقدير وإعجاب.

و تولدت لدىّ حالة نفسية غريبة.. فبقدر توددى وتزلفى إلى أقرانى المميزين النابهين كى أسرق منهم تلك الدرجات.. بقدر ما كنت أتعالى عليهم و أزهو بينهم فخراً بمقدرتى بعد حصولى عليها.. لست أعرف اسماً لهذا المرض النفسى.. لكننى أعرف أنه تسبب فى إنصراف الكثيرين عنى..

و فى الثانوية.. فشلت فى دخول كلية الطب.. و ضاع الحلم فى أن أصبح طبيبا مشهوراً و غنياً.. مع أننى لم أكن فقيراً إلى الحد الذى يجعل الغنى حلماً بالنسبة لى.

ألتحقت بكلية العلوم.. و اخترت قسم البيولوجى لأخدع نفسى بأننى أدرس موضوعات قريبة من موضوعات كلية الطب.. و فى الكلية.. مارست حرفتى..

لـص الدرجـات و التقديـرات... لكـن الشـئ الوحيـد الـذى لم أسـتطع أن أسرقـه هـو.. قلبهـا.. زميلتـى فى الكليـة.. كانـت محـل إعجـاب الجميـع مـن زملائنـا.. كانـت مرحـة.. جميلـة.. منطلقـة.. واضحـة.. و كنـت عـلى العكـس منهـا.

أحببتهـا.. و لكننـى لم أسـتطع أن أكسـب .. أو أن أسرق حبهـا.. كانـت مـن سـكان الدقـى.. و يـا للعجـب! .. أنـا فى طريقـى الآن إلى الدقـى.. بعـد سـنوات طويلـة مـن إنتهـاء الجامعـة و ابتعـادى عـن حـى الدقـى و عـن الدنيـا و النـاس.. لعـل الحـى قـد تغـير كثـيراً.. و هـى أيضـاً لعلهـا تزوجـتْ و أنجبـتْ.. مازلـت أحبهـا.. و مازالـت تـتراءى لى فى أحلامـى.. غضـة.. طريـة.. شـهية... بعلزبـول يلعـب بعقـلى.. و يسـخر مـن مشـاعرى.. يريدنـى أن أفشـل فى أن أصبـح راهبـاً.. لكـن.. تلـك المـرة.. هـو الـذى سيفشـل.. عـلى الأقـل .. إذا كنـت قـد فشـلت فى أن أعيـش وسـط النـاس.. و أن أفـوز بمـن أحبهـا قلبـى.. فلسـوف أنجـح فى أن اعتزلهـم جميعـاً.

نزلـت مـن الأتوبيـس فى رمسـيس.. و ركبـت المـترو المتجـه إلى الدقـى.. و عـلى بـاب الكنيسـة.. أمـرت عامـل الأمـن أن يخـبر المسـئول.. بوصـولى.. أنـا الراهـب انطونيـوس.

دخلــت الكنيســة.. أنظــر حــولى يمينــاً ويســاراً.. منتظــر عــودة رجــل الأمــن.. كانــت تلــك هــى المـرة الأولى التـى أدخل فيهــا تلــك الكنيســة.. دخلتهــا و أنــا يصاحبنــى مــلاك الــرب.. و لم أكــن أدرى أننــى ســأخرج منهــا .. يرافقنــى بعلزبــول.

***

«أنـا لحبيـبى، و إلىَ اشـتياقه. تعـال يـا حبيـبى لنخـرج إلى الحقـل، و لنبـتْ فى القـرى. لنبكـرنّ إلى الكـروم، لننظـر: هـل أزهـر الكـرم؟ هـل تفتـح القعـال؟ هـل نـوّر الرُمـان؟ هنالـك أعطيـك حـبى . اللّقـاح يفـوح رائحـة، و عنـد أبوابنـا كل النفائس مـن جديـدة و قديمـة، ذخرتهـا لـك يـا حبيـبى»

(نشيد الأنشاد ٧ : ١٠ — ١٣)

(٤)

فى المدرسة

أكثـر مـن عـام مـرت علىّ فى المدرسـة.. اقتربـت خلالها كثـيراً مـن تلاميـذى.. كنـت لهـم.. الأب أحيانـاً.. و أخـرى الأخ الأكـبر.. و دائـماً الصديـق.

فى تلـك المرحلـة مـن عمرهـم .. يحتـاج الولـد أو البنـت أن يشـعر بالحـب.. الحـب منـه.. والحـب لـه.. لذلـك فهـو.. أو هــى.. يحـب.. أو تحـب بدافـع داخـلى.. لا أسـباب.. لا مـبررات.. ليـس لأنـه وسـيم.. أو لأنهـا فاتنـة.. ليـس لأنـه قـوى .. أو لأنهـا رقيقـة.. بـل لأنـه .. أو لأنهـا.. لابـد أن يحـب .. أو تحـب.. تلـك هـى المعضلـة الحقيقيـة.. و هنـا كان دورى هامـاً بالنسـبة لـكل واحـد أو واحـدة منهـم.. لقـد أحببتهـم.. و أحسـوا بحبـى لهـم.. ليـس لأنـى أردت أن يشـعروا بذلـك.. لكـن لأنـى أحببتهـم حقـاً.. و عندمـا تحـب أحـداً صدقـاً..

يشعر بذلك.. أحسوا بحبى لهم.. و وجدوا عندى ما يفتقدونه .. أو يفتقده الكثير منهم فى بيوتهم.. الدفء.. الألفة.. الرعاية.. الإهتمام.. الحب.

اطمأنوا لى.. صارحونى.. استشارونى.. عملوا بنصيحتى.. اكتشفت أن أغلبهم ضحايا لواقع أسرى و مجتمعى مرير.. و إن بدا مترفاً.. مُنعماً بمظاهر المال و الغنى الذى لا يسمن و لا يُغنى من جوع إلى الحب و الإحتواء.. كم أنا سعيد بعملى وسط هؤلاء الشباب.. لكننى كنت سعيداً أيضاً لوجودى مع ميريام.. إنها لم تكن أسعد حالاً من تلاميذى.. و لم يكن إحتياجها إلىّ أقل من حاجتهم لى.. لكن.. فى الواقع.. كنت أنا أيضاً فى حاجة إليهم جميعاً.

أحياناً يكون الإحتياج مبرراً للإرتباط أو للتفاهم أو للإستمرار فى علاقة.. لكن الذى كان بينى وبين ميريام لم يكن إحتياجاً.. إنما كان حباً حقيقياً.. حب من نوع.. قلّ أن تلقاه فى عالمنا اليوم.. أحببتها دونما رغبة.. دونما شهوة.. أحببتها.. ليس لأنها جميلة.. أو لأنها رقيقة.. أو لأنها جريئة.. أو لأنها واضحة.. أو لأنها أحياناً كثيرة.. ضعيفة.. أننى أحببتها.. لأننى أحببتها .. و لم أكن لأفعل إلا أن أحبها.. وهى أيضاً.. ولكن لماذا أتحدث بدلاً عنها؟.. لنترك لها الحديث عن مشاعرها تجاهى.. كان ذلك صباح

اليـوم.. عندمـا أقبلـت ناحيتـى.. تتمايـل بجسـمها الضئيـل و هـى تدنـدن:

و قابلتك انت .. آه..

لاقيتك بتغير كل حياتى..

ما اعرفش ازاى حبيتك..

ما اعرفش ازاى.. يا حياتى..

كنـت أجلـس فى حجـرة المدرسـين وحـدى.. فلـم أنـزل إلى طابـور الصبـاح لأنـى كنـت أعـد خطـة لبعـض الأنشـطة المدرسـية.. نظـرت إليهـا و ابتسـمت.. اننـى أشـعر بالسـعادة تغمـر قلبـى حـين أراهـا.. فـلا يملـك عقـلى.. بعـد الصلـح الـذى كان بينـه وبـين قلبـى فى ميريـام.. إلا أن يمـلأ فمـى و عينـى و وجهـى بالإبتسـام و الفـرح عنـد لقياهـا.. قلـت لهـا مداعبـاً:

– و دا مين بقى بسلامته؟.. اوعى يكون أنا؟!!..

– طبعا يا قمر.. و مين غيرك؟

– باقـول لـك ايـه انـا جتتـى مـش خالصـه.. و بعديـن حـد يسـمعك.. يقـول لشريـف.. وانـا عـارف انـه صعيـدى و دمـه حامـى..

- ما هو عارف انى باحبك.. تصدق يا احمد!!.. انت الوحيد اللى بيسمح لى انى اقعد و اخرج معاه و ما يحسش بضيق.. دا حتى بيقول لى: الوحيد اللى ممكن ابقى مطمن عليكى و انتى معاه.. هو احمد..

- ده بس لانه انسان محترم.. و بيثق فيكى..

- و بيثق فيك انت كمان..

و فى خفة ألقتْ بنفسها على الكرسى بجوارى.. خطفتْ القلم من يدى.. و كنت أكتب به كلمات فى الخطة المدرسية.. فقلت لها و انا أقلب فى الأوراق.. أراجع ما كتبته:

- بلاش دلع.. انتى عارفه ان الخطة دى لازم اسلمها النهار ده للمدير.. هاتى القلم خلينى اكمل..

قالت فى غنج:

- عارف!!.. انا لو قابلتك قبل شريف مكنتش نفدت من ايدى..

- عارفه!!.. انا لو كنت قابلتك قبل ما تقابلى شريف.. كنت هاعرفك عليه بنفسى لانه اكتر واحد يستاهلك..

نظرتْ إلىّ بعينيها الواسعتين نظرة ملؤها الاعجاب و الحب .. ثم قالت:

- الا .. قـل لى.. بـس بجـد يـا احمـد.. انـت مـا فكرتـش.. يعنـى.. تحبنـى؟

كانــت بالنســبة لى كتابــاً مفتوحــاً.. لم أكــن فى حاجــة إلى التفكـير و أنـا أتحـدث معهـا.. كنـت أعـرف مـا تعنيـه حتـى و إن تعمـدتْ المكـر او اللـف و الـدوران.. بـل أننـى كنـت احيانـاً أسـمع مـا يـدور فى عقلهـا قبـل أن تقولـه.. اسـتعدت منهـا قلمـى.. و قلـت.. و أنـا مازلـت انظـر فى الأوراق التـى امامـى و اخـط فيهـا بالقلـم:

- ما انتى عارفه انى غرقان لشوشتى فى حبك..

غـيرتْ وضعيتهـا عـلى الكرسـى.. و أسـندت مؤخرتهـا الصغـيرة عـلى سـاقيها.. و اعتدلـتْ لتجلـس فى مواجهتـى.. و بإنفعـال قالـت:

- ما تبقاش رخم.. انت عارف قصدى ايه!!..

ألقيـت بالقلـم عـلى الاوراق.. و تصنعـت الانفعـال.. و قلـت:

- يظهر انى هاخد جزا النهارده بسببك..

و فى غنـج حلـو.. ضربتنـى بقبضـة يدهـا الرقيقـة عـلى صـدرى برقـة و هـى تقـول:

- قول بقى.. ما تبقاش غلس..

اعتدلت لنصبح وجهاً لوجه.. نظرتُ فى عينيها البنيتين الواسعتين.. و قلت لها:

- اكيد فى بداية تعارفنا.. الأمر كان مختلف.. خصوصا..

و ضغطت على خدها باصبعى.. و تابعت:

خصوصا مع الحركات.. اللى مش تمام.. اللى كنتى بتعمليها و انا باساعدك فى التجارب.. هاقول لك على حاجه ما قلتهاش ليكى قبل كده..

فنظرتْ فى عينى باهتمام شديد.. و أومأت برأسها لى لأتابع.. فتابعت:

أول مرة تقابلنا فيها.. على السلم عند المعمل.. انجذب ليكى قلبى بطريقة ماحستهاش قبل كده.. لا فى حبى الأول .. و لا فى تجربة من تجاربى السابقة.. حسيت ان عنيكى.. لما بصيت فيها.. كإنها بتقول لى: انت كنت فين؟.. انا محتاجه ليك اوى.. و لما رجعت الشقة.. فضلت افكر فيكى بطرق مختلفة.. مرة تقول لى نفسى: ميريام دى جميلة وجذابة و جريئة.. و مرة تقول لى: حتة ترانزستور من اللى قلبك يحبها و تفكرك بايام زمان.. و مرة تقول لى .. لأ.. نظرتها ليك مش نظرة اعجاب.. أو نظرة واحدة لرجل لفت

انتباهها.. لأ .. نظرتها.. كأنها نظرة غريق لإيد اتمدت له وسط الميه.. و ليلتها .. و كانت ليلة .. انا كنت فى انتظارها من سنين.. لإن لأول مرة فى حياتى.. يحصل اتفاق بين قلبى و عقلى.. ليلتها و بعد تفكير.. اتأكدت إن نظرتك لى.. مش نظرة واحده ممكن تعمل علاقة سكس معايا.... بس كنت.. بعد كده باستغرب من الحركات اللى بتعمليها!!.. انا كان عندى ثقة انك مش بتفكرى فى ان علاقتنا تكون بالشكل ده.. طيب ليه بتعملى الحاجات دى؟.. ساعتها مكنتش فاهم..

قالت فى هدوء.. و كأنها قد نامت على حكاية أحكيها لها:

- و دلوقتى .. فهمت؟!!..

- انتى رأيك ايه؟؟؟

ابتسمتْ برقة ووداعة.. ثم فجأة.. عاودتها شقاوة الطفولة المناسبة لحجم جسمها.. وقالت:

- فاكر وانت بتعلمنى ازاى اعمل تجربة اوم؟؟.. لما جيت اوصل منظم الكهربا.. و حبيت اغلس عليك.. قمت اتكهربتْ..

صمتتْ لبرهة.. و لم أشأ أن أقاطع استرسالها فى حديثها.. و فى تعجب قالت:

انا مش عارفه انت كنت بتجيب مقاومتك دى منين؟!!!

ثم تابعتْ:

لهفتك علىّ ساعتها.. ماشفتهاش غير مع بابا الله يرحمه.. تعرف يا احمد؟؟.. كتير من الدلع اللى بادلعه عليك ده.. كنت بادلعه على بابا..

نهضت من على الكرسى و توجهت إلى الحائط الذى نعلق عليه جداول حصص المدرسين.. نظرت فيه.. و قلت:

- الله يرحمه.. و يسامحه على البلوى اللى ابتلانى بيها.. انتى مش سامعه؟!!

كان صياح الطلاب فى طابور الصباح « تحيا جمهورية مصر العربية «.. فتابعت كلامى:

الطابور خلص يا آنسة.. و انتى عندك الحصة الأولى.. و بعدين زمان بعض الزملاء طالعين على حجرة المدرسين.. و انا مش عاوز حد منهم ينظر ليكى نظرة مش اللى هى.. او يقول كلمة فى حقك.. تضايقنى قبل ما تضايقك..

كان كلامى هذا.. نتيجة لما كان يدور بين بعض الزملاء حول علاقتى انا و ميريام.. أحسن الزملاء ظنا بنا، تخيل أننا

متزوجـان سراً.. مجتمعنـا غير مهيأ لأن يسـتوعب طبيعـة العلاقة بيننا .

خرجتْ من الحجرة و هى تقول فى جدية مصطنعة:

- انـا وانـت فاضيـين الحصـة التالتـة... هنتقابـل فى المعمـل.. ما شى ؟

ثم تابعتْ:

انـت فهمتنـى مقاومـة اوم جـات منـين.. بـس مـا فهمتنيـش مقاومتـك انـت دى اكتسـبتها ازاى!!

ثم رسمتْ ملامح الجدية على وجهها.. و أردفت:

و بعدين انا عاوزاك فى موضوع تانى.. مهم.

***

«و أمـا المـزروع عـلى الأرض الجيـدة فهـو الـذى يسـمع الكلمـة و يفهـم. و هـو الـذى يـأتى بثمـر..»

(متى ١٣ : ٢٣)

(٥)

فى المعمل

وقفت أقلب ناظرىّ على الأجهزة الموجودة.. العديد منها صنعته بيدى.. أو اشتريته من مالى الخاص.. لا يمكن أن تدرّس المواد العلمية عامةً.. و الفيزياء خاصةً من دون التجارب العملية.. كل المشتغلين و المهتمين بالعملية التعليمية و تطويرها يقولون ذلك.. و تسمع من الواحد منهم أحلى كلام.. حين يتحدث عن أهمية المعمل.. و ضرورة تطوير التجهيزات فيه.. و كيف أن الطالب لابد أن يدخل المعمل و يمارس فيه التجارب بيديه.. و لابد من رصد الميزانيات لذلك.. و.. و.. والكثير من الكلام الذى لا ترى له أى انعكاس فى الواقع.. حتى المدرسين.. يرددون نفس المقولات.. و حين تواجه أحدهم بأنه لا يمارس ذلك فى الواقع.. يتعلل بأن الإمكانيات غير متوفرة.. و أن إدارة

المدرسـة التـى يعمـل بهـا لا تسـاعده و لا توفـر لـه الميزانيـة.. أو أن المنهـج أطـول مـن أن نضيـع بعـض الحصـص فى إجـراء تجـارب يمكـن الإسـتغناء عنهـا بالـشرح و التوضيـح فقـط.. و الأولى أن نسـتغل تلـك الحصـص فى الحـل و التدريـب عـلى الإمتحـان.. و مـاذا فى ذلـك؟.. هكـذا يقولـون.. و امتحـان العمـلى لا فائـدة منـه .. يعنـى .. كـده .. كـده .. احنـا هنـدى الطالـب درجـات العمـلى.. هكـذا..

افتقدنـا «الشـاطرة الـلى بتغـزل برجـل حمـارة» عـلى رأى المثـل مـع الإعتـذار عـن بشـاعة كلماتـه.. لكـن الواقـع أكثـر بشـاعة..

أذكـر أنـى .. و أنـا فى الكليـة.. دخلـت المعمـل الخـاص بأحـد أسـاتذتى.. و للعلـم.. فـإن الجامعـة تعانـى مـن نفـس المشـكلات تقريبـاً.. دخلـت المعمـل فوجدتـه أشـبه بورشـة حـدادة مـع ورشـة تصليـح إلكترونيـات.. ناهيـك عـن سـوء الترتيـب.. ذلـك لأن أسـتاذى و مسـاعديه يقومـون.. تقريبـاً.. بصنـع الأجهـزة اللازمـة لأبحاثهـم.. و لا أنسـى مـا قالـه لى حـين دخلـت معملـه لأول مـرة و بـدا عـلى وجهـى الإسـتياء لحالـه.. كنـت فى البكالوريـوس.. قـال لى:

- شايف المعمل ده؟!!

بطريقة تدل على مدى سوءه.. ثم تابع:

المعمل ده بيخرج ابحاث بتنشر فى مجلات عالمية.

على يد هذا الأستاذ و أمثاله.. تخرجت فى كلية العلوم.. لذلك لم تكن التجارب العملية بالنسبة لى.. فقط.. وسيلة لإيضاح المعلومة أو تثبيتها فى ذهن الطالب أو حتى لتنمية مهارة استعمال الأيدى عن طريق اجرائها.. إنما كانت التجارب.. لى .. هى ممارسة العلم و التعلم عن طريق معايشة الموقف العقلى.. كنت أعد الطالب لمعايشة أزمة العالم الذى قام بالتجربة.. و أمدهم بالمعلومات اللازمة ليفكروا فى حلول لتلك الأزمة.. و أرشدهم إلى تجريب أفكارهم و اختبارها.. و اختيار أفكار بديلة إذا ثبت خطأ ما يفكرون فيه.. سواء بالمناقشة أو بالتجريب.. و كنت أعد لهم الأدوات اللازمة لذلك .. كانت حصص المعمل.. مراكز بحث صغيرة.. و لذلك كان المعمل أقرب الأماكن فى المدرسة إلى قلبى.. و لذلك كنت أقضى فيه أنا و ميريام أغلب أوقات الفراغ فى المدرسة..

و كما اتفقنا.. انتظرتها بعد إنتهاء الحصة الثانية.. لستُ أدرى كيف وصلت إلى المعمل قبلها.. مع أن مبنى المرحلة

الإعداديـة.. حيـث تعمـل هـى مدرسـة سـاينس.. أقـرب إلى المعمـل مـن مبنـى المرحلـة الثانويـة حيـث أعمـل هنـاك..

لم تكـن ميريـام مـن اللاتـى يرتديـن الكعـب العـالى.. بالرغم مـن قـصر قامتهـا.. فلـم تكـن تسـمع لمجيئهـا صوتـاً.. و كانـت تتحـرك فى خفـة و بسرعـة.. لا تحـرك يديهـا إلى الأمـام و إلى الخلـف.. لكـن ترفعهـما بجانبهـا و كأنهـما جناحـا فراشـة تطـير بهـما.. و مع ذلـك.. كنـت أحـس بهـا عندمـا تقـترب منـى.. ثم أتأكـد مـن قربهـا عندمـا أشـم عبيرهـا.. كانـت تنتقـى عطـوراً مميـزة.. أحسسـت بهـا.. فألتفـت.. فـإذا هـى غاضبـة.. ثـم زفـرتْ زفـيراً حارقـاً.. و فى غضـب شـديد قالـت:

- البنـى آدم ده خـلاص.. انـا مبقيتـش طايقـاه.. و بعديـن ده بـدأ يتعـدى حـدوده معايـا..

انفعلت لانفعالها.. و باهتمام قلت:

- ايه اللى حصل؟.. و مين ده اللى مضايقك كده؟

- البنى آدم ده.. اللى اسمه اسلام..

- قصدك مستر اسلام.. زميلنا؟

- آه يا سيدى.. مستر بتنجان.. زميلنا..

عندما يشكو طفلك من أزمة يمر بها.. أو ضائقة يشعر بها.. لا تهوّن من قدر الأزمة أمامه.. فربما يظن فى نفسه أنه مختلف عن الباقين.. و أنه أضعف منهم على تحمل الأزمات.. و التعامل مع المشكلات.. و ربما يظن أنك لا تتفهم مشاعره.. أو لا تشعر بقدر معاناته.. و لا بحجم مأساته.. لكن عليك أن تتفاعل مع احساسه و تشاركه همومه.. و تثمن قوة تحمله و حسن تعامله مع الأزمة بالرغم من صعوبتها و مرارتها.. هنا سيهدأ.. و يسمع لك.. و يستجيب لنصيحتك.. فعلى الأقل.. وجد من يشعر به و يشاركه تقديره لما يعانى منه..

هكذا تعاملت مع ميريام فى أزمتها مع زميلنا مستر بتنجان.. أقصد إسلام.. قلت لها:

– حقيقى.. ده بنى آدم خنيق..

كان إسلام مدرساً للساينس معها فى المرحلة الإعدادية... و بالرغم من كونه متزوجاً .. إلا إنه كانت له علاقات غير نظيفة.. و كان قد بدأ يقال حوله كلام عن أن له علاقات مع بعض البنات فى المرحلة الإعدادية.. كان فاشلاً فى بيته.. و فى عمله.. و فى علاقاته مع زملائه.. كان نموذجاً للفشل.. غير أنه لم يكن يرى ذلك فى نفسه..

تابعـت كلامـى مـع ميريـام بعـد أن أحسسـت أنهـا قـد هـدأت ثورتهـا.. فقلـت لهـا مداعبـاً:

– و بعديـن مـا هـى مياصتـك و دلعـك.. همـا الـلى مطمعـين النـاس دى فيكـى..

نظرت باستنكار إلىّ.. و قالت:

– اخـص عليـك يـا احمـد.. أنـا مايصـه؟!!.. أنـا باتدلـع مـع الناس؟!!..

ابتسمت لها لأخفف من حدة استنكارها.. قلت:

– اقصـد.. ان مـش كل الناس هتقـدر تقاوم تأثـيرك يا جميل..

و امسكت بساعدها و أنا أقول:

– تعـالى.. بـس اهـدى كـده.. و اقعـدى نـشرب القهـوة مـع بعض . .

و ناديـت عـلى الـدادة.. و طلبـت منهـا أن تعـد لنـا فنجانـين مـن القهـوة..

قالـت ميريـام.. و هـى تجلـس عـلى الكرسـى المواجـه لى.. بعـد أن جلسـت أنـا عـلى الكرسـى خلـف المكتـب:

- كويس انك فتحت الموضوع ده.. علشان نكمل كلامنا بتاع الصبح.. قل لى بقى سيادتك.. اشمعنى انت تأثيرى ماجبش نتيجة معاك؟!!

و فى هدوء.. و ثبات.. و سكينة.. قلت:

- المحبة..

ردتْ علىّ فى سخرية:

- اشمعنى..

ابتسمت.. و قلت:

- انا مش باهزر..

- و انا مش فاهمه.. يعنى انت تحبنى.. تقوم تقاوم مشاعرك ناحيتى؟!!!

- اللى انتى مش فاهماه ... ان الحب شئ .. و المحبة شئ تانى..

و بدأت اعتدل فى جلستى على الكرسى.. لآخذ موقعى و أمارس مهنتى كمدرس.. و لكنه كان أعذب درس شرحته.. تابعت حديثى لها:

الحب معنى ممكن نختلف بشأنه.. يعنى .. فى ناس ممكن تسمى الإخلاص حب.. و ناس تانيه ممكن تسمى الخيانة حب.. مثلا زوجة فوطيفار.. عزيز مصر .. مش كانت عاوزه تخونه مع سيدنا يوسف؟.. احنا سمينا مشاعرها.. و فعلها.. خيانة.. لكن هى أسمته .. حب.. الناس احيانا كتيره.. علشان تدارى وقاحتها.. و سقطاتها.. بتديها اسم.. ممكن يخدع كتير من الناس... حب !!!

كانت ميريام تستمع الى حديثى بإنصات و تركيز.. حتى أنها اعتدلتْ على الكرسى و أسندتْ رأسها إلى كفيها.. و راحتْ تحملق فى وجهى.. و تطيل النظر فى عينى حتى يكاد طرفها لا يرتد إليها..

تابعت كلامى قائلا:

وقاحة إسلام.. و مضايقته ليكى.. و عرض نفسه عليكى بصورة وقحة.. مش هو أكيد بيسميها حب؟... انتى عاوزه تسمى مشاعرى ناحيتك بنفس الإسم اللى ممكن اسلام يسمى بيه مشاعره ناحيتك؟!!!

قالت متعجلة:

- لأ طبعا.. انت حاجه .. و هو حاجه تا...

قاطعتها لأكمل حديثى:

- لو سألتك.. عكس الحب ايه؟.. ايه رأيك؟

- الكره طبعا..

- غلط!!.. ما تتعجبيش.. زى ما قلت لك.. الحب ممكن نختلف على معناه.. يعنى مثلا.. من وجهة نظر اسلام و زوجة فوطيفار.. الحب يعنى الجنس.. يبقى عكسه العفة.. واحد تانى ممكن يشوف ان الحب معناه التضحية.. يبقى عكسه الأنانية.. و لو قعدنا نعد المعانى المختلفة للحب.. و نجيب عكسها مش هنخلص.. لكن عموما..اللى نقدر نقوله.. إن الحب .. عكسه مش الكراهية أو الكره.. زى انتى ما قلتى..

الكراهية.. عكس المحبة.. و المحبة نور.. بيلقيه ربنا فى قلب الإنسان فيصبح خير محض.. و ساعتها مايعرفش الإنسان غير السلام و السكينة والنفع لنفسه و لكل الموجودين حوله.. حاجه كده.. تقدرى تقولى.. زى اللى انتم بتقولوا انكم بتكتسبوها بحلول الروح القدس فيكم..

أظهرتْ ميريام تعجباً من كلامى.. و ظهر ذلك على فمها الذى ضمته.. و عينيها اللتان زادتا اتساعاً..

ثــم رفعــتْ رأســها عــن يديهــا .. ولوتهــا يمينــاً.. و قالــت:

– ايـه يـا عـم احمـد!!.. دا انـت فاضـل لـك معمودية وتبقى بتتكلـم أحسـن من أبونـا فى الكنيسـة..

ضحكـت.. و عـلا صـوت قهقهتـى.. ثـم صمـت لبرهـة.. و قلـت:

– و مين قال لكى انى ما باتعمدش؟!!!

اختلطـتْ فى وجههـا.. و فى حـركات جسـدها كل علامـات التعجـب و التسـاؤل و الإسـتنكار و الذهـول.. أشـفقت عليهـا.. فقلـت موضحـاً:

– هــى .. مــش المعموديــة دى.. ببســاطة.. يعنــى انــى اغتسـل بالميـه.. اعـلان عـن التوبـةأو استعداد لقبـول الخـلاص مـن الله؟

أومـأتْ برأسـها باهتـمام شـديد.. و اعادتهـا إلى كفيهـا عـلى المكتـب مـرة أخـرى.. مثـل تلميـذ أعطـى كل انتباهه لأسـتاذه.. فتابعـت أقـول:

انتى اتعمدتى مرة واحدة.. ساعة ما اتولدتى.. صح؟

انـا بقـى باتعمـد كل يـوم خمـس مـرات.. مـا هـو الوضـوء عندنـا .. اعـلان عـن توبتنـا لله مـن ذنوبنـا.. و اقبالنـا عـلى الله.. و اسـتعدادنا لتلقـى المغفـرة و العفـو، يعنى الخـلاص، من خلال الصـلاة..

عـادت بظهرهـا إلى الـوراء.. و أخـذتْ نفسـاً طويـلاً.. كأن الـكلام أكـبر مـن اسـتيعابها.. فأكملـت:

بـصى يـا ميريـام.. المحبـة هـى روح كل ديـن أو رسـالة سـماوية.. و هـى الوحيـدة الـلى بيهـا يقـدر الإنسـان انه يهـزم كل شر بداخلـه.. و كل شـهوة ممكـن تضيعـه و تبعـده عـن ربنـا.. عارفـه الشـيطان « بعلزبـول « بقـى شـيطان ليه؟..مـش علشـان كـره آدم والا حقـد عليـه.. لأ .. الحاجـات دى جـات بعديـن.. لكنـه قبـل كـده .. كـره نفسـه.. و كـره طبيعتـه.. و كـره وصفـه الـلى هـو فيـه.. علشـان كـده حـب يكـون فى مـكان تانـى غـير الـلى هـو فيـه.. ظـن ان آدم.. بالنسـبة لربنـا .. فى مـكان أحسـن مـن مكانـه.. علشـان كـده اراد انـه يكـون مـكان آدم.. أو ان آدم مـا يكونـش ليـه مـكان عنـد ربنـا..

مفيـش عنـد بعلزبـول سـلام نفسـى.. و لا طمأنينـه.. و لا سـكينه.. و لا رضـا.. الخلاصـة مفيـش عنـده.. محبـه.. لكـن أكيـد الشـيطان بيحـب!!.. بيحب المعصيـة.. و الخطيـة.. لأنها..

و جاءت الدادة بالقهوة.. كانت قد تسلمتْ العمل منذ أيام قليلة.. و لم تكن تعلم أننى وميريام.. لا نشرب القهوة إلا فى فنجانين مخصوصين كانت ميريام قد أحضرتهما من بيتها لى و لها.. و كنت قد وضعتهما فى درج مكتبى بحجرة المدرسين عندما تركت الدادة السابقة العمل.. كادت ميريام أن تنفجر فى وجه الدادة عندما رأت القهوة فى كوب زجاجية.. تداركت الموقف و أخبرتها أنه خطئى أنا.. فلقد نسيت أن أدفع بالفنجانين إلى الدادة الجديدة.. و أسرعت إلى حجرة المدرسين لأحضرهما.. و فى طريق عودتى إلى المعمل.. قابلنى اسلام..

إنسان عجيب.. منحه الله وسامة فى ملامح وجهه.. و لكنه استأثر بالقبح و الدمامة فى قلبه و مكنون نفسه.. أغلب الظن أنه هو من بدأ باللمز عن علاقتى بميريام.. أو على الأقل.. هو أكثر المشاركين فى إذكاء روح المنافسة بين الألسن التى تلوك سمعتها و سمعتى.. استوقفته.. و قلت له فى نبرة حادة:

– ما تضايقش ميريام تانى..

رد علىّ فى برود:

- هى اشتكت لك؟!!.. و الا دى غيره؟!!

- نظف نفسك و قلبك من جوا.. يمكن فى يوم من الأيام تبقى بنى آدم و تشوف الناس بطريقة أحسن..

- جرى ايه يا مستر احمد .. هو حلال ليك.. و حرام على غيرك؟!!

و كدت أفقد حلمى و رشدى و ألكمه فى وجهه.. لكننا فى المدرسة.. و من المؤكد أن تصرفاً كهذا سيزيد النار اشتعالاً.. و يُكثر الكلام عنى و عن ميريام أكثر و أكثر.. اكتفيت بأن أبصق فى وجهه.. ثم قلت:

- انت عمرك ما هتبقى بنى آدم..

و تركته و انصرفت.. كانت الدماء تغلى فى عروقى.. و رغم كل محاولاتى لرسم الهدوء على وجهى، إلا أن ميريام قد رأت تغيراً فى حالى و مزاجى عند عودتى لها فى المعمل.. قالت متسا ئلة :

- مالك؟!!.. فى حاجه حصلتْ ضايقتك؟!!

أجبتها و أنا أحاول أن أرسم بسمة على وجهى لأدارى بها ما أشعر به من ضيق:

- مفيش حاجه.. ما تشغليش بالك..

و فى محاولة منى للقفز على الموقف.. سألتها:

هى الدادة عملت قهوة تانى؟

أدركت ميريام أنى أدارى عنها أمراً ضايقنى.. و لكنها لم تشأ أن تلح علىّ فى الحديث.. كانت تعلم أنى لا أحب الحديث عما يضايقنى كثيراً.. و كانت تعلم أنى أتكلم فى لحظة معينة عندما أشعر بالحاجة إلى الكلام.. و أنى ساعتها .. أتكلم و استرسل دون سؤال و كأننى ألقى عن كاهلى حملاً أنوء به.. نهضتْ من على الكرسى متضايقة و قالت:

- مش هنلحق نشرب القهوة.. الحصة الرابعة خلاص على وشك انها تبدأ وانت عندك شغل فيها .. عموما .. هنشربها بالليل مع بعض لإنى عاوزاك فى موضوع ضرورى..

كنت مشغولاً باستعادة سلامى وهدوئى الداخلى.. فلم أسألها عن هذا الموضوع الضرورى.. وافقت أن نتقابل فى المساء بإيماءة من رأسى.. و زاد عدم كلامى من ضيقها و تبرمها.. فقالت بحدة:

تحب نتقابل فى « نيوبيان فيلدج « و لا فى صالة البولينج؟..

و قبل أن أجيبها.. أجابت هى قائلة:

خلينا فى صالة البولينج.. علشان نقعد على النيل.. الجو عموما بقى أدفى شويه.. و أنا عارفه انت أد إيه بتحب قعدة النيل.. و عارفه تأثيره على أعصابك.. و أنا عاوزاك هاااادى.. و صااااافى.. لإن الموضوع اللى هاكلمك فيه مهم..

و حملت كشكول تحضير الدروس.. و قالت و هى تنطلق:

هاكلمك على الساعة ٨ كده.. أوك؟؟؟

باى..

و انطلقتْ

«كالتفـاح بـين شـجر الوعـر كذلـك حبيـبى بـين البنـين. تحـت ظلـه اشـتهيت أن أجلـس، و ثمرتـه حلـوة لحلقـى. أدخلـنى إلى بيـت الخمـر، و علمـه فـوق محبـة. أسـندونى بأقـراص الزبيـب. أنعشـونى بالتفـاح، فـإنى مريضـة حبـا. شـماله تحـت رأسى و يمينـه تعانقـنى»

(نشيد الأنشاد ٢: ٣ — ٦)

(٦)

فى صالة البولينج

لم ترغبْ أن تبقى فى الجنة.. لملمتْ نفسها.. تجمعت على بعضها.. أخذت تضغط على بابها.. لكنه لم ينفتح.. راحت تتوسل إلى رضوان أن يفتح لها الباب. اعتذر لها.. إنه يفتح باب الجنة ليدخل منه الداخلون.. لم يفتحه مرة ليخرج منه أحد.

تضرعت إليه.. أقسمت عليه.. تعجب رضوان.. هل يعقل أن يترك الجنة أحد بإرادته؟!!.. و إلى أين يذهب و يترك الجنة ببهائها و رونقها؟.. قالت له: إنى أريد أن أخرج من جنة السماء.. و أستقر فى جنة الأرض.. أطرق رضوان رأسه.. و تلمّس لها العذر.. و قال فى نفسه: مادامت ستخرج من جنة إلى جنة فلا بأس.

فتــح رضــوان البــاب.. فتدافعت مياه النيل.. يســوقها شــوقها إلى المســتقر.. هبطــتْ مــن الســماء فى مــكان ليس لها بوطــن.. و لا يصلــح لهــا مقــر.. ســافرتْ المســافات الطوال مــن بلــد الى آخر.. تقطــع صخراً.. و تشــق رملاً.. ترســم بقطراتها طريقــاً إلى الجنة.. إلى مــصر حيث المســتقر.

لذلــك.. فإنــك مهــما جلســت أمــام النيــل.. لابــد أن تأخــذك صفحتــه.. وجهــه أجمــل الوجــوه.. و أعــذب الوجــوه.. و أرق الوجــوه.. حتــى و إن تجلــس أمامــه و بجانبك أجمل إمــرأة، فلابد أن يأخــذك جمــال النيــل منها.. و يأسرك ســحره و يشــغلك رونقه عنهــا.. فتجــد عينيــك تنظــر إليــه أكثر ممــا تنظــر إليها.

كم قصة من قصص العشــق شــهد عليها ذلك الساحر!!!.. فى وطننــا .. كل العاشــقين، تقريباً، بثوا مشــاعرهم إليه.. هذا يشــكو حالة شــوقه إلى حبيبته.. و ذاك يصفها له و يقارن حســنها بجماله.. و ذلــك يســأله ويســتنطقه المشــورة فى وجــده و هيامــه.. كــم مــن قبلــة، كانت هى الأولى بين عاشــقين، احتضنها النيل و ســمح بها.

و بالرغــم مــن أن فرعــا للنيــل يمــر عــلى مســافة لا تقــل عــن أربعــة كيلومــترات مــن قريتــى التى نشــأت بهــا.. فقــد اعتدت .. فى صبــاى.. أن أســتقل دراجتــى.. و أحيانــاً .. أقطع تلك المســافة ســيراً عــلى قدمــاى لأذهــب إليه...

كان هادئـاً.. وديعـاً .. وفيـاً .. دائـماً فى انتظـارى.. حـين أنزل مـن عـلى الطريـق.. لأجلـس عـلى شـاطئه تحـت ظل شـجرة من الأشـجار التـى أظـن أنـه أنبتهـا خصيصـاً ليسـتظل بهـا رواده و محبـوه تعبـيراً منـه عـن كـرم ضيافتـه و ترحيبـه بهم.

كنـت أجلـس أمامـه.. أداعب ماءه بيـدى كأننى أداعب شـعر حبيبتـى أو خصرهـا.. تملؤنى النشـوة.. و أغيـب فى لحظة.. فأرى الكـون كلـه داخـلى.. و أرانـى فى كل نقطـة منـه.. مـا الكـون إلا أرض و سـماء.. مـن الأرض خلقـت.. و لأجلى خلقتْ السـماء.. و تأخذنـى السـكرة.. فأرانـى الأرض فى سـفالتها و غلظتهـا .. و أرانـى السـماء فى علوهـا و رقتهـا .. أنـا الكـون .. فى غموضـه.. فى سـكونه .. فى عمقـه .. فى اتسـاعه .. فى احتوائـه للأضـداد.. والكـون مـا هـو إلا .. أنا.

أفيـق مـن سـكرتى عـلى انعـكاس أضـواء السيارات من على مـاء النيـل بعد أن غابت الشـمس و حـلّ الظلام.. فانهـض عائداً إلى المنـزل .. تغمرنـى السـعادة.. و تعلونـى السـكينة.. بعـد أن إمتـلأ قلبـى بنـور تلـك اللحظة.

هكـذا كان النيـل لى .. رفيـق صباى و شـبابى.. و شـاهداً على حبى و مأسـاتى.. و أنيـس وحدتى..

و بالرغـم مـن مشـاق اليـوم، إلا أننـى لم أكـن لأضيـع لقائـى بالنيـل و ميريـام سـوياً.. كنـا نلتقـى أحيانـاً فى كافيـه « القريـة النوبيـة » بامتـداد شـارع جامعـة الـدول.. و كنـا كثـيراً، و خاصة فى ليـالى الشـتاء، ننطلـق بسـيارتها إلى كوبرى عبـاس لنجلس عند النيـل داخـل سـيارتها .. و نتنـاول حمـص الشـام المشطشـط.. ثم تريـح رأسـها على كرسـيها بعـد أن ترجع بـه إلى الـوراء.. فتصبح شـبه نائمـة.. و تحكـى و تتكلم فى أى شـئ.. و كل شـئ.. لم تكن تشـعر معـى بحـدود لا يمكـن تخطيهـا.. و لا بقيود تكبل لسـانها عـن البـوح بـكل مـا فى خاطرهـا.. و كنت أشـعر و هى مسـتلقية عـلى الكرسـى بجانبى، أننـى بجوار طفلتـى.. و أحيانـا تمتد يدى إلى رأسـها.. فأداعـب خصـلات شـعرها.. و أمسـدها بكفـى.. فتغمـض عينيهـا.. و تأخـذ نفسـا عميقـا.. و تخرجـه أنينـا.. فتشـعر مـع حـركات راحـة يـدى.. بهـدوء و اسـترخاء.. لم ترَ فى تـصرفى هـذا أى نيـة سـوء.. و لم تُبـد منـه أى ضيق.. بـل كانت.. مسـتمتعة، تتركنـى حتـى أبعد يـدى عن رأسـها بإرادتـى.. فتبدأ تفيـق.. ثـم تقول:

– انـت حنـين أوى يـا احمـد.. و أنـا واثقـة فيـك.. و فاهمـة مشـاعرك ناحيتـى .. و عارفـه انـك مـش بتعمل كده بـأى غرض

سـئ .. لأ .. أنـا عارفـه إنـك بتعمـل كـده لمـا تكـون محتـاج انك تخـرج جـزء مـن مشـاعرك دى..

ايـه فايـدة انـك تحـس بحاجـات حلـوة ناحيـة نـاس و مـا تعـبرش ليهـم عنهـا أو تحسسـهم بيهـا؟!!

ثـم يعاودهـا جنـون طفولتها اللذيـذ.. فتنتفض على الكرسـى و تعتـدل فى مواجهتـى.. و تقـول فى جديـة لا تخلو من ابتسـامتها الجميلة:

- عـارف!!!.. لـو حـد غـيرك الـلى حـط ايـده عـلىّ!!.. أنـا كنـت قطعتهـا لـه..

كانـت الليـالى التـى نقضيهـا عـلى كوبـرى عبـاس أكثـر ألفـة و قربـاً مـن تلـك المقابـلات التـى تتـم بيننـا فى الكافيـه.. لكن فى صالـة البولينـج، أحـد نـوادى كورنيـش الدقـى، كان للقاءاتنـا مـذاق مختلـف.. كان المـكان أرسـتقراطياً إلى حـد كبـير.. لكـن ذلـك لم يكـن مـا جذبنـى إليـه...

اعتدنـا أن نجلـس أمـام النيـل مبـاشرة.. كنا نهبط سـلالم عدة حتـى نصـل إلى مكان جلوسـنا على شـاطئه.. فنبتعـد عن ضجيج السـيارات.. و يصبـح المـكان أشـبه بمكانى من النيـل فى القرية..

عندمـا كنـت أنـزل مـن عـلى الطريـق لآوى تحـت الشـجرة إلى أحضانه..

فى هـذا النـادى.. تعلمتْ ميريـام أن تتركنى، بعـد أن نجلس، لربـع سـاعة عـلى الأقـل.. أسـبح مـن خـلال ميـاه النيـل.. و كوبـرى الجامعـة عـلى يمينـى.. و القاهـرة أمامـى.. أسـبح فى ذكرياتـى.. و آلامـى.. ثـم بعـد تلـك الفـترة.. كنـت أدخـل فى حالـة مـن الإندمـاج فى المـاضى.. كنت أهـذى كالمجانـين.. لكن هذيـان المتعبـين .. أحيانـاً يفـوق حكمـة المتفلسـفين..

لم يكـن يفصلنـى عـن الخـروج مـن حالـة التأمل خـلال الربع سـاعة و الدخـول فى حالـة الإنفصـال الواعـى عـن الحـاضر، إلا أن أشـعل سـيجارة.. تعلمـتْ ميريـام، أن تلـك هـى اللحظـة الحاسـمة لتمنعنـى مـن الولـوج فى تلك الحالـة.. فكانـت تتركنى إلى أن أشـعل السـيجارة.. حينهـا تجذبنى بعيداً عـن ذلك المنحدر .. لأفيـق لها رويـداً.. رويداً.. فنبـدأ حديثنا فى العمـل أو فى الحياة وأنـا فى حالـة مـن التركيـز و الإنتباه..

قبـل الثامنـة ببضـع دقائق، كنـت أمام بوابـة النـادى، حين رنّ هاتفـى المحمول باتصـال منها:

– آلو..

- انت فين؟

- على باب الصالة..

- خمس دقايق و هاكون عندك.. ما تسرحش.. باى.

فضلت أن أنتظرها أمام النادى لندخل سوياً.. لم تتأخر عن الدقائق الخمس.. أوقفتْ سيارتها بعيداً قليلاً عن البوابة.. و جاءت تتحرك كفراشة تهز جناحيها.. لكن .. وجهها كانت تكسوه جدية تنبئ عن انشغال بالها بأمر هام.

وصلنا إلى حيث مكاننا المفضل.. أمام النيل مباشرة فى زاوية من النادى.. سألتنى عما كان يضايقنى فى الصباح.. لكننى لم أشأ أن أفتح موضوع إسلام .. ثم إننى بعد أن رأيت وجهها، شغلنى ما جاءت من أجله أكثر من أى موضوع آخر.. فقلت لها :

- أكيد هابقى أحكى لك بعدين.. لكن شكلك بيقول إن فى حاجه شغلاكى.. و أنا جيت علشان أسمعك..

لم أحاول توقع ما يشغل بالها.. فكل الذى يقلقها .. يقلقنى.. و كل الذى يؤرقها .. يؤرقنى.. و أى شئ يؤلمها .. يؤلمنى.

نظرت إليها.. انشغال بالها كان واضحاً فى شرود عينيها.. سألتها :

– فى إيه يا ميريام؟

قالت:

– شريف....

– ماله شريف؟!!.. فى حاجه حصلت له؟؟

– لأ .. هو بخير.. الموضوع مش كده..

– طيب ايه الموضوع؟!!!

أطرقت لأسفل.. ثم قالت:

– إحنا بقالنا أكتر من ٦ سنين مع بعض.. و أنا.. أنا مبقيتش صغيرة..

أدركت ما تعنيه و ما تعانيه.. إننى أعلم ما يمثله شريف لها .. بعد وفاة والدها.. و بعد الذى مرت به من تجارب.. أصبح شريف هو الأمل الذى به و له تعيش.. لم يكن مجرد حب فى حياتها يمكن أن يتحول فى يوم من الأيام إلى ذكرى.. لا يمكن أن تستغنى عنه.. بل يمكن أن تستغنى به عن الدنيا..

لكن أمها.. و من حولها لا يدركون ذلك.. أمها تظن أن حب ميريام لشريف، نزوة يمكن أن تتخلص منها يوماً.. و أن شريف يخدعها أو يستغلها و يريد أن يخرجها من دينها.. لكنها لا تعلم عمق إيمان ميريام.. إنها متدينة حقا.. و تحب مسيحيتها.. تذهب الى الكنيسة باستمرار.. و تداوم على الإعتراف .. إنها تخدم فى دار للمسنين أيام الجمعة من كل إسبوع.. ثم إن شريف لا يفكر بهذه الطريقة.. إنه يحبها حقاً.. و يحترم إيمانها و تمسكها بعقيدتها.

كان لابد من مناقشة الأمر بالتفصيل.. و مع أن البعض يؤمن أن الشيطان يكمن فى التفاصيل.. إلا إننى أعتقد أن ذلك يحدث عندما تكون النوايا سيئة يمكن أن تفضحها التفاصيل..

إننى أتفهم مشكلة ميريام.. و لكننى لا أفهم موقف المحيطين بها منها.. اثنان يحب كل منهما الآخر.. من الذى يستطيع أن ينكر عليهما حبهما؟.. ومن الذى يقف عثرة فى طريق زواجهما؟.. خاصة و أن شريف شاب على خلق.. و من أسرة طيبة.. و حالته المالية جيدة.. و فوق ذلك .. يحب ميريام.. فلماذا يرفض البعض أن يظلهما سقف واحد كزوجين؟.. هل لأنه مسلم و هى مسيحية؟ و ماذا فى ذلك؟

لا يوجـد مانـع فى المسـيحية و لا فى الإسـلام يمنـع زواجهـما.. الموانـع كلهـا مـن صنعنـا نحن البـشر.. نظـرة النـاس و الأقارب إلى تلـك الفتـاة التـى ارتبطـت برجـل ليـس مـن دينهـا.. موقفنا أمـام جيراننـا.. و هكـذا...

و يبـدو أننـا نرث نظـرة المجتمع للأمـور دون وعـى منا.. لأن ميريـام كان لهـا نفس الإرث المجتمعـى بالرغم مـن معاناتها منه.. فبعـد أن أوضحـت لهـا أنهـا لابـد أن تتـزوج مـن شريـف.. فـلا مانـع دينى يحـول دون ذلـك.. وجدتهـا تقول:

- آه .. مفيـش مانع صحيـح.. بس الأولاد هيبقوا مسـلمين.. مـش كده؟

قابلتنـى كثـيراً.. أعنـى تلـك النظـرة الضيقـة للأمـور.. لم تلحـظ ميريـام أن شريـف .. عندمـا يتـزوج منهـا.. يأتمنهـا عـلى تنشـئة أولاده .. نفسـياً و خلقيـاً و سـلوكياً.. و أيضاً دينيـاً.. ماذا بعـد تلـك الثقـة؟!!.. الإبـن لأبيـه.. قانـون فى كل المجتمعات.. حتـى فى الغـرب.. إلى أن يـدرك.. و يختـار هو.. هل يحتفظ بنسـبه لأبيـه أو أن ينتسـب إلى عائلـة أمـه.. لكـن ذلـك بعـد أن أدرك.. و الأهـم.. بعـد أن توفـرتْ لديـه حريـة الإختيـار... قاطعتنـى بقولها :

- أيـوه .. أيـوه.. و لـو كان اختيارهـم .. كـده .. و الا كـده.. يبقــى... ها...

و أشارت بيدها اليمنى إلى رقبتها.. تعنى .. الذبح.

ابتسـمت لحركـة يدهـا التـى تزامنتْ مـع صـوت أصدرته من فمهـا الصغـير.. قلت لها:

- مين قال الكلام اللى انتى بتقوليه ده؟!!

- مين؟؟؟!!!.. هو الأخ مش عايش معانا والا ايه؟!!!

- ماليـش دعـوه بالشـذوذ فى الفكـر.. أنـا باتكلم عـن الفكرة مـن مصدرهـا.. بـصى يـا حبيبتـى.. الديـن، أى ديـن، بيؤسـس داخـل كل انسـان مسـئولية شـخصية.. و مسـئولية مجتمعيـة... مسـئوليته الشـخصيه.. فى حريـة اختيـاره لإعتنـاق هـذا الديـن أو غـيره و الإلتـزام بتعاليمـه وعباداتـه و طقوسـه... و المسـئولية المجتمعيـة.. هـى إن اختيـاره ده.. لا يؤثـر عـلى السـلام و المحبـة الـلى الديـن، أى ديـن، بينـادى بيهـم فى أى مجتمـع.. لـو حصـل ده.. يبقـى مفيـش مشـكلة.. كل واحـد حـر فى اعتقـاده..» مـن شـاء فليؤمـن و مـن شـاء فليكفـر»

- بس مش كل الناس فاهمه كده؟

- دا حقيقى.. بس هى دى مسئوليتنا.. إن اللى فاهم.. يفهم اللى مش فاهم..

انتبهنا على صوت موبايل ميريام.. كانت أمها.. فقد تجاوزت الساعة العاشرة مساءً.. ساعتان مضتا علينا و لم نشعر بهما.. و يبدو أن حسماً للموضوع لم نصل إليه.. كان لابد أن ننصرف لتعود ميريام إلى البيت سريعاً.. و كان لابد من إشراك شخص معنا فى الأمر.. شخص تكون له القدرة على فهم علاقتها بشريف و تفهم حالتها.. بعطف و حنو .. و تكون له القدرة على إقناع أهلها إذا لزم الأمر.. و لابد سيلزم.. سألتها:

- أنا عارف إنك بتروحى تعترفى؟

فأشارت برأسها بالموافقة.. فتابعت:

و انتى ايه رأيك فى القسيس اللى بتعترفى امامه؟

فقالت:

- أبونا سمعان .. رجل طيب و حنين.. و بيحبنى أوى..

و كأننى وجدت ضالتى.. فقلت متفائلاً:

- ايه رأيك .. ما تحكى له.. و شوفى رأيه ايه؟

أحسست بترددها.. فأردفت قائلاً:

طالما الرجل زى ما بتقولى كده.. يبقى أكيد هيتفهم الموضوع.. ويمكن يكون عنده حل.. و احنا عموما مع بعض.. و هنلاقى حل..

و انصرفنا من صالة البولينج.. و قد قررتْ ميريام أن تذهب فى الغد بعد انتهاء العمل إلى الكنيسة للقاء « أبونا سمعان »..

***

«ثـم قـال: «إن الـذى يخـرج مـن الإنسـان ذلـك ينجـس الإنسـان. لأنـه مـن الداخـل، مـن قلـوب النـاس، تخـرج الأفـكار الشريـرة: زنى، فسـق، قتـل، سرقـة، طمـع، خبث، مكـر، عهارة، عـين شريـرة، تجديـف، كبريـاء، جهـل . جميـع هـذه الـشرور تخـرج مـن الداخـل و تنجـس الإنسـان»

(مرقس ٧ : ٢٠ — ٢٣)

(٧)

ميشيل

فى اللحظات الفارقة فى حياة الإنسان.. و التى فيها سيأخذه الموضع الذى سيقوم بوضع قدمه فيه إلى مفترق طرق أو إلى حدث جلل.. لحظتها.. لا يتطلع المرء إلى المستقبل فقط.. لكنه يضطر إلى النظر إلى الوراء.. بعيداً فى ماضيه.. و أحياناً يتجلى الماضى أمامه.. فيأخذ منه عبرة و درساً.. وربما تثبيتا و تأكيداً أن قدمه فى الموضع الصحيح.. و لعله يأخذ منه دفعة إلى الأمام.. فيشرع المرء فيما هو مُقبِل عليه.. واثقاً.

كلنا يحدث معه ذلك.. لكننى لم أعلم أن الماضى قد شخص شخوصاً حقيقياً واقعاً بأشخاصه المهمين المؤثرين.. إلا ليسوع فى حادثة التجلى على الجبل.. فى تلك الحادثة.. رأى بعض التلاميذ يسوع و هو يتحدث مع موسى و إيليا بشأن خروجه إلى أورشليم ليتمم الذى جاء من أجله.

حدث ذلك مع يسوع.. ثم حدث معى.. نعم حدث معى.. لقد رأيت الماضى الذى لم يفارقنى.. حتى فى أحلامى.. رأيته أمام عينى لحماً و دماً و أنا أقف فى الكنيسة بالدقى أنتظر عودة رجل الأمن.. كنت أتلفت يميناً و يساراً أتأمل طرازها المعمارى.. و تلك النقوش المزخرفة على جدرانها.. أنقّل عينى من جدار إلى آخر حين وقع نظرى على تلك الغرفة ذات الجدران الزجاجية.. حجرة صغيرة.. لا تحتوى إلا على مكتب و كرسيين.. و تستخدم فى الإعتراف.. يجلس القس على الكرسى خلف المكتب.. و يجلس الذى جاء للإعتراف على الكرسى الآخر..

رأيتها.. من جانب وجهها.. عندما كانت تزيح خصلة من شعرها تسللت من تحت غطاء الشعر.. و أخذت تسندها برفق جانب أخواتها خلف أذنها.. لا يمكن أن أنسى تلك الوجنة الوردية المشربة بحمرة النار التى أججتها فى قلبى و عروقى لسنوات.. لم تنطفأ خلالها لحظة و كأنها نيران فارس.. تلك الوجنة كيف أنساها و هى ترافقنى كل ليلة فى أحلامى.. أشم عبيرها .. وارتشف رحيقها.

توقفت رأسى عن الدوران.. جحظت مقلتاى باتجاه الحجرة.. إنها هى.. ليست كما تركتها من عشر سنين.. لكنها كما كانت برفقتى فى حلمى ليلة أمس.. لم تتغير .. جذابة..

شـهية.. تـأسر القلـب و العقـل .. ميريـام.. زميلـة الدراسـة.. حبيبـة القلـب.. و منـى النفـس..

هـرب دمـى.. إمتصـه بعلزبـول.. و راح يجـرى بـدلاً عنـه فى عروقـى.. انتبهـت و أنـا أراهـا تنهض واقفـة و تحيى ذلـك القس الـذى كانـت تجلس أمامـه.. إنهـا تغـادر الغرفـة.. و طريقهـا إلى الخارج سـيجبرها على المـرور بجانبى.. هل أوقفهـا و أحادثها؟.. إننـى فى الكنيسـة.. بيـت الـرب.. ثم إننـى راهـب.. و هل يصح ذلك مـن راهـب؟.. هل سـتتذكرنى؟..

أخـذت أردد و أنـا أراهـا تتجـه ناحيتى و تقترب منـى..» و لا تدخلنـا فى تجربـة.. لكـن نجنا من الشريـر لأن لك الملـك و القوة و المجـد إلى الأبـد آمين»..

ولّيـت ظهـرى ناحيتهـا.. مـرتْ بجانبـى.. فاحسسـت بـه.. الشريـر.. بعلزبـول.. يزيـد مـن تواتـر مـروره بـكل جـزء مـن أجـزاء جسـدى.. حركـتْ بمرورهـا تيـاراً مـن الهواء حـولى.. و حـرك معـه أحاسيسـى.. و حمـل إلى عطرهـا.. شـعرت بنشـوة.. اتسـع معهـا صـدرى.. و سـمعت فى أذنىّ صوتـاً يأمرنـى «نادى عليهـا«.. لا يمكــن أن يكــون صــوت شـيطان.. بعلزبــول لا يدخـل إلى الكنيسـة بيـت الـرب.. إننـا بالصليـب.. نخـرج الشـيطان مـن جسـد حلّ بـه.. فكيـف يدخـل الشـيطان إلى بيت الصليب؟؟..»نـادى عليهـا «.. يـتردد الصـوت فى رأسـى..

فيتحـرك معـه قلبـى.. و تطـرب لـه كل أركانـى ..» يالـلا مـا تضيعهـاش دى فرصتـك «.. مـا اجملـك أيهـا الصـوت!!.. و لكننـى فى الكنيسـة.. قلـت ذلـك لنفسـى.. فسـمعت الصـوت يقـول لى: و مـا الفـرق بـين الكنيسـة و الديـر؟!!.. ألسـت تنادى عليهـا.. و تكلمهـا.. و تحتضنهـا.. و تقبلهـا.. و تضاجعهـا.. فى الديـر؟.. أقصـد فى أحلامـك فى الديـر؟؟.. أم أنـك تعـودت الفشـل؟!!.. بـل يبـدو أنـك أجبـن مـن أن تواجههـا حقيقـة..

أنا لست جباناً.. و لا فاشلاً..» ميريام «..

لم يخـرج اسـمها مـن فمـى نـداء.. إنـما كان صرخـة أثبـت بهـا لنفسـى.. قوتـى وشـجاعتى.. أو.. ربـما كانـت إعلانـاً عـن قـرارى.. أننـى لـن أخسرهـا تلـك المـرة.

توقفتْ... التفتتْ.. ثم قالتْ:

- أفندم؟!!.. ثم أردفتْ

فى حاجه يا ابونا؟!!

خطوتـان .. بطـول عـشر سـنين.. كانتـا تفصلانـى عنهـا.. قطعتهـا فى ثانيتين..وقفـت أمامهـا.. و احنيـت قامتـى لأقـترب مـن وجههـا.. فقـد كنـت أطـول منهـا.. و قلـت:

- ازيك يا ميريام..

- نشكر ربنا..

و راحت تحدق فى وجهى و تدقق فيه.. فسألتها و أنا أبتسم:

- انتى مش فاكرانى؟!!

- أنا آسفة يا أبونا.. بس أنا حاسه إن..

و فجـأة تهلـل وجههـا فـازداد حسـناً.. و انفتـح فمهـا عـن ابتسـامة.. طـال شـوقى إلى رؤيتهـا حقيقـة أمام عينـى.. صاحت بصـوت مرتفـع، لفـت انتبـاه البعـض إلينـا:

- مش معقول... ميشيل؟!!

ابتسمت لها فتابعتْ:

انـت اتغـيرت كتـير.. دا أنـا معرفتكـش.. الشـنب.. الدقن .. و الاسـكيم.. بـس لسـه برضـه وسـيم زى مـا انـت.. لكـن انت عملـت ليه كـده؟!!

كنــت أنصــت إلى حديثهــا.. أطـرب لصوتهـا.. و أراقـب حـركات جسـدها.. كانـت تتكلـم بـكل جـزء فيـه .. خفيفـة.. رشـيقة.. مرحـة كـما هـى.. قالـت مازحـة:

- مـش عارفـه ... أناديك ميشـيل .. و الا أبونـا.. تتصور إنى أول مـرة أحـس إنه صعـب إنك تتعامـل مع كاهـن.. أو راهب.. كان زميلـك فى يوم مـن الأيام !!..

نصف الساعة.. انقضت و نحن واقفيْن.. تذكرنا خلالها الجامعة و أيامها.. زملاءنا.. أساتذتنا.. بعض المواقف التى جمعتنا... و نسيت أنى فى الكنيسة.. و نسيت أنى راهب.. و أننى لابد أن أحافظ على وقارى.. وعلى هيبة الاسكيم .. ذلك الزى الذى أرتديه.. كنت أضحك.. و أتمايل مع كلامها.. و أحياناً أضرب بكفى على كفها عندما نتذكر موقفا مضحكاً.

نصف الساعة.. نسيت فيها انطونيوس.. الراهب.. بل و القديس أيضاً.. نسيت خلالها الدير.. و الكنيسة التى أقف فيها.. نصف الساعة أنستنى عشر سنين مضتْ من عمرى.. و خلال تلك الدقائق كنت.. ميشيل فقط..

انصرفتْ ميريام بعد أن أخبرتنى أنها إلى الآن لم تتزوج.. و أخبرتنى بمكان المدرسة التى تعمل فيها.. و أعطتنى رقم هاتفها المحمول.. و اتفقنا على أن يتصل كل منا بالآخر.

انصرفتْ ميريام.. فأتبعتها عينى حتى خرجت من باب الكنيسة.. لحظتها فقط.. انتبهت.. و تذكرت المهمة التى جئت من أجلها.. و تذكرت أن رجل الأمن كان قد عاد إلىّ و أنا أحادثها.. تلبسنى أنطونيوس.. عاد إلىّ وقارى.. و هدوئى.. و ألتفت لأنهى ما جئت من أجله..

و بعد أن أنهيت مهمتى فى الكنيسة بالدقى.. انصرفت إلى

العباسـية حيـث الكاتدرائيـة.. وصلـت إليهـا و قـد أوشـكت الشـمس على المغيـب.. و علمت أننى سـأبدأ العمـل الذى جئت مـن أجلـه فى الغـد.. و أن الأمـر قـد يسـتغرق ثلاثـة أيـام أو أكثر قليـلاً.. و أننى سـأبيت خـلال تلك الأيـام فى الكاتدرائيـة.. وقد أعـدوا لى مكانـاً للمبيـت .. حجـرة بسيطة فى الطابـق العلوى.. اصطحبنـى إليهـا أحـد الخـدام.. ما أشـبه تلـك الحجـرة بقلايتى فى الديـر.. غير أنها أسـوأ حالاً منهـا.. سرير متواضع يتسـع لفرد واحـد .. مكتـب بسـيط.. تعلـوه بعض نسـخ الكتـاب المقدس و كتـاب الصلـوات الأجبيـة.. و يقـف وراءه كرسـى خشـبى .. و بجانـب الحائـط دولاب مـن الطـراز القديـم.. مـا إن رأيتـه حتى تذكـرت فيلـماً لإسـماعيل يـس.. أظنـه « حماتـك مـلاك « تذكرته بالرغـم مـن أننـى لم أشـاهد التلفـاز منـذ قرابـة العشر سـنين!!.. كيـف يمكـن لذاكرتنـا أن تحتفـظ بالمـاضى طـوال السـنين المتتالية العديـدة.. برغـم مـا يسـتجد عليهـا مـن أحـداث؟.. شـئ عجيـب.. لكـن الأعجـب منه هو كيـف نتأقلـم، نحـن الرهبان، سريعـاً مـع الواقـع و المجتمع خـارج الديـر بمجـرد خروجنا من بابـه واحتكاكنـا بالناس؟

إننـا لا نحيـا حيـاة الرهبنـة فعـلاًس.. أنـا أحمـل موبايـل.. و اسـتعمل الكمبيوتـر.. بـل إن بعـض القلايـات بهـا تكييـف.. ثم إن الديـر مفتـوح للزائريـن.. نحادثهم ويحادثوننـا.. أين نحن من

أولئك الذين نقرأ عنهم فى سير القديسين؟!!.. أين نحن من ذلك القديس الذى مكث خمسين سنة لم يرَ خلالها إنساناً؟.. أو من ذلك الذى انقطع فى الجبال سبعين عاماً، لم يتحدث إلى إنسى قط؟.. أين نحن من هؤلاء؟!!

إننا، الرهبان، لم نبتعد كثيراً عن الحياة و لا عن المجتمع.. أو إن شئت قلت: إننا لسنا رهباناً بالمعنى المتعارف عليه للرهبنة... أنا مثلاً!!.. نسيت أننى راهب.. و نسيت هيبتى و وقارى و سكينتى.. و رحت أتمايل على ذكرى أحداث مرّ عليها أكثر من عشر سنوات..عندما كنت واقفاً فى الكنيسة مع ميريام...

أحسست بالبرودة تسرى فى جسدى مع مرور اسمها فى خاطرى.. تزاحمتْ فى رأسى ذكريات عديدة حتى عجزت عن حملها قدماى.. جلست على السرير.. أسندت رأسى على كفى.. و رحت أردد بداخلى كلماتها.. وابتسم لحركاتها الصبيانية عندما تمر أمام عينى.. و أشتعل شهوة عندما أتذكر صدرها الممتلئ إذا قورن بجسدها النحيل.. ماذا يخفى هذان الثديان ورائهما؟.. من يسكن القلب المخبوء تحتهما؟.. إنها لم تتزوج إلى الآن!!.. و يصعب علّى تصديق أنها لم تقابل الشخص المناسب حتى الآن.. ربما هى تنتظر شخصاً بعينه.. لكن من يكون؟.. تردد فى أذنى قولها:» بس لسه برضه وسيم زى ما انت..« ابتسمت ابتسامة ثقة بالنفس.. أننى تقريباً، الوحيد بين زملاء

دفعتنـا فى الكليـة وغيرهـا مـن الدفعات، الـذى لم يحـاول القرب منهـا .. مـع أنها كانت تلتحف شـغاف قلبى.. لكنهـا.. و لازالت تراني وسـيماً!!!!..هل كنت ألفـت انتباهها إلى هـذا الحد؟.. هل كانـت تنتظـر منـى أن أتقـرب منهـا؟.. لكنهـا لم تُبـدِ أى تـصرف يـدل عـلى أننى مميـز بالنسـبة إليهـا.. و هل مـن المفـترض أن تبدأ المـرأة و تبـادر؟!!!. كـم كنـت جبانـاً أمـام إعـلان حبى لهـا.. لا .. لم أكـن جبانـاً.. بـل كنـت غبيـاً.. لا .. لم أكـن غبيـاً ومـا كنـت يومـاً كذلـك.. فقـط كنت متحفظـاً.. أجل .. كأى شـاب ريفى.. شرقـى.. يتحـرج مـن مثـل هـذه المشـاعر و الأحاسـيس.. لكـن اليـوم.. الأمر مختلـف.. و أنا أصبحت إنسـاناً مختلفـاً.. فماذا يمنع أن..... بعلزبـوووول.. أنـت لا تسـكن الدير أو الكنيسـة فقط.. أنــت فى الكاتدرائيــة أيضــا؟!!.. يبــدو أنــك تســكن بداخــلى.. ترافقنــى فى منامــى و يقظتــى.. تلعــب بعقــلى و مشــاعرى..

قمـت مـن عـلى السريـر.. و اتجهـت نحـو المكتب.. أمسـكت بنسـخة مـن العهـد الجديـد لأقـرأ فيهـا لعـل اللعـين يرعـوى و يبتعـد عنـى.. فتحـت الكتـاب بعشـوائية.. فـكل الإنجيـل لـه سـحره و تأثـيره عـلى النفـس.. و هدوئهـا و سـكينتها .. ألم يقـل يسـوع فيـه:» تعالـوا إلىّ يـا جميـع المتعبـين و الثقيـلى الأحمـال و أنا أريحكـم«..؟ فتحـت الكتـاب لأقـرأ أمامـى: « ويـل للعـالم مـن العثـرات! فلابـد أن تأتـى العثـرات و لكـن ويل لذلك الإنسـان

الـذى بـه تأتـى العثـرة: فـإن أعثرتـك يـدك أو رجلـك فاقطعهـا و ألقهـا عنـك، خـير لـك أن تدخـل الحيـاة أعـرج أو أقطـع مـن أن تلقـى فى النـار الأبديـة و لـك يـدان أو رجـلان. و إن أعثرتك عينـك فاقلعهـا و ألقهـا عنـك، خير لـك أن تدخـل الحيـاة أعور مـن أن تلقـى فى جهنـم النـار ولـك عينـان».

ألقيـت جسـدى عـلى الكرسـى.. وضعـت الإنجيـل عـلى المكتـب أمامـى و قلـت فى نفسـى: و لكـن.. مـاذا يفعل الإنسـان إذا كانـت العثـرات تأتـى مـن العقـل... أو مـن القلـب؟.. كيف يتخلـص المـرء مـن عقلـه أو قلبـه و يحيـا بـدون أيهـما؟!!.

أنـا أحـب ميريـام.. أرغـب فيهـا.. أتمناهـا.. أحلـم بهـا فى أحضانـى كل ليلـة.. يحترق جسـدى بنار الشـوق إليهـا.. و كنت أظنها سـتظل حبيسـة فى مـاضىّ.. أسـيرة أحلامى إلى أن تنسـينى إياهـا عزلتـى و حياتـى فى الديـر.. ما كنـت أظن أن سـور الماضى سـيتحطم يومـاً.. فتخـرج منـه واقعـاً يهـز حـاضرى.. ويسـلب منـى إرادتـى فى صنـع مسـتقبلى.. ليتنـى ما تركـت الديـر.. ليتنى مـا جئـت إلى الدقـى و كنيسـته.. ليتنـى مـا قابلـت ميريـام... بـل ليتنـى مـا تركتهـا و ابتعـدت عنهـا كل تلـك السـنين.. ليتنى تحدثـت معهـا قبـل ذلـك و صارحتهـا بحبـى.. أمـور كثـيرة فى حياتـى كانـت سـتتغير.. ربـما.. إذا تحادثنا مـرة أخـرى!!.. أتأكد مـن مشـاعرها نحـوى.. لأحـزم أمـرى.. و اتخـذ قـرارى فى أى

طريـق أسـير.. مـاذا يمنـع أن أتـرك الديـر؟.. و أمـارس حياتـى ككاهـن عـادى و ليـس كراهـب؟.. ما المانـع أن أعمل بشـهادتى و مؤهـلى؟.. ربما مدرسـاً مـع ميريـام.. و نظل معاً طـول العمر..

و أتـرك الديـر؟!!!.. صعـب أن أغـير أحلامـى و طموحى و خططـى التـى ظلْـت أرسـم لهـا عـشر سـنين مـن عمـرى.. لكن ميريـام لم تفارقنـى لحظـة خلالهـا.. حبـى لميريـام .. أطـول عمـراً مـن أحلامـى فى الدير..

ربـما لو تقابلنا مرة أخرى.. و لكن متـى؟ و كيف؟... حتى إذا قررت أن أقابلها ثانية.. كيف ألقاها و أنا لا أملك إلا زى الرهبان؟ .. يسـتحيل أن أجلس معها فى نـادى أو فى مكان عام و أنا أرتديه.

لـو كنـت مـن سـكان القاهـرة!!.. كنت قضيـت تلـك الأيام مـع أسرتـى.. و لكنـت عـلى راحتـى.. لكـن .. لابـد أن نلتقى..

أفقـت مـن حيرتـى عـلى صـوت الهاتـف المحمـول.. نظـرت فـإذا هـى ميريام.. لابـد أن الـرب قد سـمع لطلبتـى.. و أزعجته حيرتـى... أو أن بعلزبـول يعـد لى شركاً.. ليهـدم أحلامـى.. لا أعتقـد ذلـك.. فأنا أحـب ميريـام.. و بعلزبول لا يعـرف الحب.. و لا يمكـن أن يسـعى للتوفيـق بـين حبيبين.

أمسـكت بالهاتـف.. و ضغطـت عـلى زره.. سـمعت أعـذب آلـو.. مـن أرق صـوت.. قلـت فرحـاً:

- ازيك يا ميريام..

- ازيـك يـا ميشـيل.. أنـا هاقـول لـك ميشـيل.. أصـل .. حقيقـى مـش لايـق عليـك.. ابونـا دى..

و كنا قد اتفقنا أن تنادينى بما تحب.. فأجبتها:

- اللى انتى تحبيه.. أنا معاكى فيه.

- فاكر جورج؟.. اللى كان معانا فى الدفعة!!

- آااه.. آه.. فاكره

- لسـه كان بيكلمنـى مـن شـويه.. و لمـا قلـت له انـى قابلتك ماصدقش.

و خطـرت لى فكـرة.. جـورج مـن سـكان القاهـرة.. مـن الظاهـر .. مسـكنه قريـب مـن الكاتدرائيـة.. و قـد كان فى مثـل حجمـى تقريبـا.. يسـتطيع جـورج أن يحـل مشـكلتى..

قلت لها فى لهفة:

- إدى رقمى لجورج و خليه يتصل بى..

- هـو أنا مسـتنياك لمـا تقـول؟!!.. أنا فعـلا إديته رقمـك .. و هتلاقيـه بيتصل بيـك دلوقتى..

– أنـا بالفعـل معايـا عـلى « الويتنـج « اتصـال.. أكيـد هـو.. اقفـلى و هاكلمـك بعديـن.

كان جـورج هـو المتصـل.. تبادلنـا حديثـا لطيفـاً.. مرحـاً.. تذكرنـا خلالـه الجامعـة و أيامهـا.. و سـأل كل واحـد منـا الآخر عـن أحوالـه.. و مـاذا اسـتجد فى حياته خـلال السـنين الماضية.. و طلـب منـى أن نلتقـى.. فانتهـزت الفرصـة.. و أوضحـت لـه المشـكلة.. أنـى لا أسـتطيع الظهـور فى مـكان عـام و أنـا أرتـدى الاسـكيم.. فعرض هـو الحـل.. أن نلتقى فى مسـكنه.. و يعطينى مـن ملابسـه إلى أن يشـترى لى مـا يناسـبنى.

هكـذا أصبـح ممكنـاً أن ألتقى بميريـام دون أن أشـعر بحرج.. وافقـت عـلى الفـور على اقـتراح جـورج.. و طلبت منـه أن نلتقى غـداً مسـاءً.. حتى أكـون قـد انتهيت مـن عمـلى فى الكاتدرائية.. و أوعـزت إليـه أن يطلـب مـن ميريـام أن تكـون معنـا.. فوافق.. لأن فى لقاءنـا نحـن الثلاثـة.. متعـة.. و ألفة.. وذكريـات أكثر.

و قضيت الليلة.. أرى ميريام معى يقظة .. أتمثل حوارى معها.. و أتخير الكلمات لها... و فى منامى.. كعادتها.. لم تفارق أحضانى..

و لأول مـرة... منـذ عـشرة سـنين.. أنـام .. ولم أصـلِ صـلاة الرهبان.

***

«لا تدينـوا لـكى لا تدانـو، لأنكـم بالينونـة الـتى بهـا تدينـون تدانـون، و بالكيـل الـذى بـه تكيلـون يـكال لكـم. و لمـاذا تنظـر القـذى الـذى فى عـين أخيـك، و أمـا الخشـبة الـتى فى عينيـك فـلا تفطـن لهـا؟»

(متى ٧: ١ — ٣)

(٨)

أحمد

بعد الدوام.. فى ذلك اليوم.. تركتنى ميريا أمام المدرسة لتذهب إلى الكنيسة لتتحدث مع القس سمعان بخصوص علاقتها بشريف.. كان لدى بعض الأشغال.. لكن الذى كان يشغلنى أكثر.. مقابلتها مع « أبونا ».

كنت مترقباً إتصالها بى لتخبرنى بما جرى بينهما.. لكنها تأخرت فى الإتصال.. و لم أشأ أن أحادثها أولاً.. فأنا أعلم أن لديها دروساً خصوصية ستذهب إليها بعد لقاءها مع القس.. و لن يفيد شيئاً أن أتصل بها أثناء عملها.. فلن نستطيع التحدث فى أى شئ.. و أخيراً فى المساء اتصلتْ بى.. و أخبرتنى بما كان بينهما.. قالت إنها لم تخبر القس تقريباً بشئ.. فقط أخبرته

أنهـا تريـده فى أمـر شـخصى و لا يصلـح أن تتحـدث بخصوصـه فى الكنيسـة.. فدعاهـا إلى زيارتـه فى منزلـه القريـب مـن مسـكن ميريـام يـوم الجمعـة مسـاءً.. الأب سـمعان.. لم يكـن مجـرد أب إعـتراف بالنسـبة لميريـام.. لقـد كان صديقـا لوالدهـا.. و هو من نفـس البلدة التـى منها عائلتـة والدها.. و أيضـا زوجته على صلة بـأم ميريـام.. لذلـك كان يعاملهـا برفق و حنـو.. و لم يكـن غريباً أن تـزوره فى منزلـه.. لكن الغريـب، أن ميريام أخبرتـه أن صديقاً لهـا سـيأتى معهـا.. و أن هـذا الصديق اسـمه أحمد.. أنـا بالطبع..

القـس سـمعان لم يسـألها عـن اسـمى.. فليسـت تلـك مـن عـادات شـعبنا الكريـم.. لكـن ميريام تعمـدتْ أن تخبره باسـمى ليفهـم هـو بنفسـه أننـى مسـلم.. و ليخمـن.. بينـه و بين نفسـه.. أن الأمـر يخـص علاقـة بينهـا و بـين شـاب مسـلم.

ذكيـة هـى ميريـام، أعطتـه فكـرة عـن الموضـوع الـذى تريده فيـه بطريقـة غير مبـاشرة.

فى وطننـا الكثـير مـن القصـص التـى يكـون بطلاها.. شـاب مسـلم و فتاة مسـيحية.. أو شـاب مسـيحى وفتاة مسـلمة.. لكن قصـة ميريـام و شريف لهـا خصوصية.. همـا رشـيدان.. مثقفان.. مـن وسـط اجتماعـى راقـى.. ثـم أنهـما متفقـان عـلى أن يظـل كل منهـما عـلى دينه.

رحبت باقتراحها أن أذهب معها إلى « أبونا « .. وجودى سيعطيها دعماً نفسياً لتتحدث معه فى ثقة و ثبات.. و ربما تطلب الأمر تدخلاً منى لأتحدث نيابة عن شريف.. و ربما نيابة عن ميريام أيضاً.. فنحن لا نحسن .. أحياناً.. الحديث عما يدور بداخلنا.

كنت أعلم أنها تقضى مساء الجمعة مع شريف.. فسألتها هل ستخبره بموعدها.. أم ماذا ستفعل؟.. و علمت منها أنها لابد ستخبره بالأمر.. فهى لا تخفى عنه شيئاً.. و ستتفق معه أن يرافقها صباح الجمعة فى خدمتها فى دار المسنين.. و أنها ليست المرة الأولى التى يشاركها فيها الخدمة.. و أنه يسعد بذلك .

كان يفصلنا عن مساء الجمعة يومان.. انقضوا سريعاً.. و ذهبت إلى ميريام فى منزلها لنذهب معاً إلى القس.. لم أكن معتاداً على زيارة ميريام فى منزلها.. إلا أن أمها تعرفنى معرفة لا بأس بها.. فقد كنت أنتهز فرصة حديثها مع ميريام فى الهاتف المحمول.. و أسلم عليها.. و أطمئن على صحتها و ألاطفها و أتحدث إليها بود.. ثم إنى ألتقيت بها أكثر من مرة حينما كانت تأتى إلى المدرسة تريد ميريام فى قضاء حاجة لها .

و بالرغـم مـن ذلك.. فإنها لم تكـن ترتاح إلى المسـلمين عامة.. كانـت دائـماً فى تعاملهـا معهـم.. متحفظـة متحفـزة.. كانـت من الذيـن ينظـرون إلى الآخر نظرة انتقـاص لمجرد أنه آخـر.. و ذلك مـرض يصيـب الكثيرين عـلى اختـلاف معتقداتهـم.. فالكثير من النـاس يرون أنفسـهم على الحق المطلـق و الصواب البـين.. و كل مـن خالفهـم ينسـبون إليـه كل نقيصـة.. و يتهمونه بـكل رذيلة.. بحـق أو بـدون حـق.. و ذلـك لمجـرد أنه آخـر.. و أيـن ذلك من قـول الله تعـالى على لسـان رسـوله صلى الله عليـه وسـلم» و إنا أو إياكـم لعـلى هـدى أو فى ضـلال مبـين «.. أتمنـى أن يكـون القس سـمعان مـن المسـتنيرين المنفتحين عـلى الآخرين.

وصلنـا إلى مسـكن القـس.. لم يكن بعيـداً عن سـكن ميريام.. اسـتقبلنا الرجـل بترحـاب.. و بشاشـة وجـه.. هو ممتلـئ البنية.. متوسـط القامـة.. و بـما أنـه كان فى بيتـه.. فقـد كان عـلى راحته.. كان يرتـدى جلبابـاً صعيديـاً.. أو ما نسـميه نحـن فى ريف الوجه البحـرى « جلابيـة بلـدى «.. تذكـرت القريـة و أهلهـا.. النـاس جميعهـم.. يشـبه بعضهـم بعضـاً.. لا تسـتطيع .. بمجـرد النظر.. أن تفـرق بـين مـن يعتنـق دينـاً و الـذى يعتنـق آخـر.. أحسسـت بـود و ألفـة تجـاه القـس سـمعان.. و هـذا الإحسـاس جعلنـى متفائـلا بشـأن ميريـام.. و شـعرت أنـه قد فهـم رسـالة ميريـام له

بخصـوص الموضـوع الـذى تريـد أن تتحدث معـه بشـأنه عندما أخبرتـه باسـمى.. و لكـن مـن الواضـح أنـه ظـن أننـى المعنـى بتلـك الرسـالة.. لأنـه.. و هـو يدعونـا إلى الدخول.. و يشـير إلى حجـرة الصالون.. ظـل يرجع النظـر إلىّ.. لكن نظرته .. بالنسـبة لى.. لم تكـن مـن النـوع الـذى يثـير القلق.

فتـح القـس بـاب الغرفـة و طلـب منـا الدخـول.. جعلـت ميريـام تتقدمنـى.. دخلنـا حجـرة متوسـطة الحجـم.. بهـا بـاب يُفـضى على بلكونة.. كانت تكسـوه سـتائر.. فعل الزمـان بألوانها مـا يفعلـه بجلودنـا.. و تغطـى الأرضيـة سـجادة قديمـة لكنهـا أسـعد حالاً من السـتائر.. مـرت ميريـام عليها بثقـة لتجلس على كنبـة طقـم الصالـون المواجهة لبـاب الغرفـة.. تقدمـت وراءها.. جلسـت بجانبهـا بحـذر.. لكـن الكنبـة كانـت متماسـكة بعكس ما تبـدو..

جلـس أبونـا سـمعان على كرسـى عـن يمينـى.. و أيضـا كان واقفـاً عـن يسـارى.. و لكـن فى صـورة معلقـة عـلى الحائـط .. و فـوق رأسـى .. عـلى الحائـط الـذى خلفـى .. صليـب كبـير .. و عليـه.. كان يسـوع معلقـاً.. و فـوق رأسـه عذابـات و همـوم.. و ذنـوب و خطايـا بنـى البشر، يحيـط بها إكليـل من الشـوك النابت فى قلـوب المجرمـين.. صنعتـه يـد الخطـاة الآثمـين.

انتهـت عبـارات الترحيب و لم يبق منها سـوى صدى تلاشـى و هـو يحـاول كـسر جمـود الصمـت الـذى أحـاط بنـا.. نظـرت إلى ميريـام بجـوارى لتبـدأ الـكلام.. فـإذا بهـا تـضرب السـجادة بأطـراف قدمهـا اليمنـى فى تواتـر سريـع.. وقـد أطرقت برأسـها إلى أسـفل.. و رأيـت فى وجههـا الخـوف.. القلـق.. والخجـل.. ميريـام القويـة.. الجريئـة.. صاحبـة التجـارب.. تجلـس أمامنـا.. ضعيفـة.. منكسـرة.. صامتـة.. هـل حبهـا لشريـف أمـر تخجـل مـن إعلانـه فى ثقة و ثبـات؟.. هل لأنـه مسـلم؟.. أم أن الحب.. شـعور بداخلنـا.. نخجل أن يطَلـع عليه أحد غيرنـا؟.. المعصية و الجريمـة فقط.. همـا اللذان نخشـى أن يرانا عليهما أحـد الناس.. هـل أصبـح الحـب جريمـة؟.. أم أننا لا نحسـن الحـب؟.. لذلك نخجـل منـه و نمارسـه فى الخفاء؟..

حـين صارحتنـى ميريـام بحبهـا لشريـف، لم تكـن بهـذا القلق و لا ذلـك الخـوف و لم أرَ فى وجههـا ذلـك الخجـل.. لكننـى أرى كل ذلـك الآن واضحًـا.. فى جلسـتها.. فى توترهـا.. فى طأطـأة رأسـها لأسـفل.... كل ذلـك.. لأنها سـتعلن عـن حبهـا أمام..» أبونـا»؟.. مـع أن سـلطان « أبونـا» عليهـا سـلطان روحـى.. إلا أنهـا تخشـى أن تبـوح بحبهـا أمامه..

إننـا نخـاف.. نقلـق.. نخجـل.. نكـذب أمـام كل صاحـب سـلطان علينـا.. مـع أنـه كان لابـد أن يبعـث فينـا.. الأمـن.. الطمأنينـة.. الثقـة.. الصـدق.

و تذكـرت « مـى» .. بعـد كل تلك السـنين لم أنسَ مـى.. فرق كبـير بـين شـخصيتها .. و شـخصية ميريـام.. فـإذا كانـت تلـك حـال الأخـيرة.. فـماذا كانـت حـال مـى .. حـين أحاط بها فكى الرحـى.. أمهـا و إخوتها؟.. مازلـت أتذكرهـا!!.. خاطر جعلنى أبتسم..

و انتبهت على صوت « أبونا».. يقول و كأنه قد ملّ صمتنا:

– يا مرحب..

أيقنت من وجه ميريام أنه علي أن أبدأ الحديث.. قلت:

– أهـلا بيـك يـا « أبونـا «.. فى الحقيقـة.. ميريام كانـت عاوزة تستشـير حضرتـك فى موضـوع يخصها..

– قصدك .. يخصكم؟!!..

فهمت ما يرمى إليه أبونا.. فأجبته:

– أى حاجـه تخـص ميريـام تخصنـى.. بـس الموضـوع اللى هى عـاوزه حضرتـك فيـه .. يخصها..

و قبـل أن تسـيطر الدهشـة عـلى الرجـل.. دفعـت ميريـام فى فخذهـا بجانـب فخـذى لتخـرج عـن صمتهـا.. فقالـت:

- أحمـد.. صديـق، و أخ .. و حاجات كتـير.. بس فى الحقيقة.. الموضـوع يخصنى.. و يخص شـخص آخر.

و قاومـت ميريـام خوفهـا.. و تغلبت على خجلهـا.. و أخذت تحكـى للقـس سـمعان.. كيـف تقابلـت مـع شريـف.. و تصـف رجولته.. و شـهامته.. و اسـتفاضت فى وصف حبهـا له.. و عدم قدرتهـا عـلى البعد عنـه أو الحيـاة بدونه.. و أوضحت لـه كيف أن شريـف يتفهـم كونها مسـيحية و هـو مسـلم.. وأنه لـن يرغمها.. بـل إنـه لم يطلـب منهـا أصـلا أن تـترك دينها.. ثـم إنه يحترم فيها تدينهـا.. و أحيانـا يشـاركها خدمتهـا.. و فـوق ذلـك.. لا مانـع لديـه أن تتـم مراسـيم الزواج حسـب الطقوس الكنسـية..

كانـت تتكلـم بانفعـال و تأثـر.. تزاحمـت دموعهـا خلـف جفنيهـا و أبـتْ أن تفـارق عينيهـا.. بكبريـاء.. تهـدج صوتهـا مـراراً.. و كأنهـا تسـتحث « أبونـا « أن يؤمـن بقضيتهـا.. و أن ينحـاز إلى وجهـة نظرهـا.. كل ذلـك.. و أبونـا مطـرق رأسـه إلى الأرض .. يسـمع و لم ينطـق ببنت شـفة.. أشـفقت عـلى ميريام.. ورأيـت أنهـا فى حاجـة إلى أن تهـدأ لتلتقـط أنفاسـها.. فتدخلـت قا ئلاً :

- فى الواقـع... شريـف.. شـاب محـترم.. و مرتـاح ماديـا.. و مسـتنير.. يعنـى موضـوع الدين ده مش فـارق معـاه.. و بعدين.. بيحـب ميريام فعـلا.. و جـاد فى الإرتبـاط بيها..

و رفـع أبونا رأسـه.. و أخذ شـهيقاً طويلاً.. و طـرده سريعاً.. و قال:

- أيوه.. بس اللى أنتم بتتكلموا فيه ده ما ينفعش..

كانـت ميريـام تخـرج من حقيبتهـا منديلاً تمسـح بـه عينيهـا.. و لم تفجأهـا كلـمات « أبونـا « .. و لا أنا فاجئتنـى كلماته.. إلى الآن.. لكـن الذى قالـه بعد ذلـك.. كان غريبا بالنسـبة لى.. سـألته:

- ليه ما ينفعش يا أبونا؟!!

أجابنى فى تأثر:

- ياابنـى .. لا العيلـه بتاعتهـا هتوافـق.. و لا الديـن بيسـمح بكده..

قلت متعجباً:

- بـس يـا أبونا.. يمكـن أنـا .. معلوماتـى عن المسـيحية مش كتـيره.. بـس أنـا أعـرف إن مفيـش فى الإنجيـل حاجـة تمنـع إن المسـيحية تتجـوز من غـير المسـيحى!!..

و نظـرت إلى ميريـام، و أنا أنهى قـولى، فرأيت فى عينيهـا تأييداً لكلامـى.. و تفويضـاً لى أن أُكمـل الحديـث نيابة عنهـا .. و قبلت تفويضهـا لى.. ردّ عـلي أبونا بقوله:

– البنـت المسـيحية الـلى بتتجـوز مـن واحـد غـير مسـيحى.. بنسـميها.. فـرع مقطـوع..

و لم أفهم ماذا يعنى .. فسألته:

– مش فاهم .. يعنى إيه؟!!!

أجابنى موضحاً..

– يعنـى فرع غير مثمر.. علشـان كده بنشـبهه بالفـرع المقطوع من شـجرته.. و دا تقليد كنسـى..

سألته:

– يعنى ايه تقليد كنسى؟!!

– يعنى عرف متفق عليه.. أو مثلا زى الإجماع عندكم..

الـذى أعلمه .. هـو أن الإجماع يسـتند إلى نـص.. و أن العرف يتغـير حسـب الزمـان و المـكان.. و أعـرف أن تقليـد الأقدمين.. مرفـوض فى الإسـلام..»قالوا هـذا مـا وجدنـا عليـه آباءنـا».. و

مرفوض أيضاً فى المسيحية..» لأنكم ترفضون وصية الرب من أجل تقليد»..

إننا نعانى من تكرار فعْل و فهْم الذين سبقونا دون النظر إلى مستجدات الزمان و متغيرات الواقع.. و نعطى قدسية لأفعال أو أقوال لبشر مثلنا .. هى ليست وحياً.. فلماذا نلزم أنفسنا بالإعتقاد فيها؟!!.

أجدادنا اتفقوا على أعراف و تقاليد.. رأوا أنها مناسبة لزمانهم و ظروفهم و بيئتهم.. لكن ليس بالضرورة أن تظل رؤيتهم صحيحة.. و لا أن تظل رؤيتهم مناسبة لنا فى زماننا.. ثم .. إذا كنا من هواة تقليد السابقين.. فلماذا لا نقلدهم فى وضع أعراف و تقاليد.. نصوغها نحن و نرسى دعائمها بأنفسنا كما فعل السابقون؟..

لقد بلغنا رشدنا.. و نمتلك من الأفكار و المفاهيم و التصورات بل و الأدوات .. ما لم يكن يملكه أجدادنا.. فلماذا لا نملك زمام أمرنا.. فيكون لنا فهمنا و اجتهادنا و أعرافنا و تقليدنا؟

كان أبونا يوافقنى أحياناً.. و يعارضنى أخرى.. تارة يرى أننا بالفعل فى حاجة إلى التجديد و التصحيح.. و أخرى ..

يـرى أنـه لا جـدوى مـن الخـروج عـلى الواقـع المألوف.. سـألته مستنكر اً :

– يعنـى هـو ينفـع.. إننا نقضى عـلى قلبين بيحبـوا بعض لمجرد عـدم الخروج عن الواقـع المألوف؟!!

ردّ علي القس منفعلاً:

– ياابنـى المسـألة مـش عـرف و تقاليـد بـس.. دا ديننـا.. و بعديـن هنـروح بعيـد ليـه؟.. مـا هـو نفـس الشـئ عندكـم..

ثم سألنى:

يعنـى هـو دينكـم مـش برضـه بيمنـع إن المسـلمة تتجـوز من غـير المسـلم؟.. و بيعتبرهـا كافـره و مرتده لـو عملت كـده؟.. و انـت أكيـد عـارف .. الكافـر و المرتـد بيتعمل فيه ايـه عندكم؟!!

مـرات عديدة.. قلت لنفسـى: إننا نعيش فـوق ذات الأرض.. تحـت نفس السـماء.. نشرب ماء واحـداً.. نتنفس هواء مشـتركاً.. نشـارك بعضنـا البعض فى العديد من مناسـبات حياتنـا.. أفراح.. أحـزان.. همـوم.. غـلاء.. وبـاء.. فلـماذا لا نتشـارك أفكارنـا؟.. لمـاذا يخطـئ كل منا فهْـم الآخر؟..

لم تكـن لـدى إجابـة واضحـة أو محـددة عـلى ذلـك السـؤال.. لكـن مـن خلال مناقشـاتى مـع ميريـام سـابقاً .. ثم حـوارى مع الأب سـمعان.. اتضـح لى أن المشـكلة أبعـد مـن ذلـك.. إننـا فى الأصـل، نخطـئ فهْم مـا لدينا.. نـراه بطريقتنـا.. عـلى هوانا.. أو وفـق مـوروث بعيـد جداً عـن واقعنا.. ثـم نشـكل، بفهمنا ذلك، صـورة... قـد لا تـسر الناظريـن .. و نخـرج بهـا عـلى الآخرين.. فيرونهـا غـير مقبولـة... و لأننـا، فى أعماقنـا، يصعـب علينـا أيضاً قبولهـا.. ولكن يعظـم فى نفوسـنا التصريح بذلك.. نعلـن.. « هو دا ديننا »..

كلا .. ليـس هـذا ديننـا .. فى ديننـا.. لا ظلـم.. لا قهـر .. لا تفرقـة .. لا سـخرية من الآخريـن .. لا تكبر و لا تجـبر.. لا عنف إلا إذا انتهكـت الحرمـات.. وأول حرمـة، جاهـد الأولـون مـن أجـل إرسـاء دعائمهـا .. و صونهـا.. والحفـاظ عليهـا.. هـى .. حريــة الإختيار..

أنـت حـر فى اختيـارك.. و أنا حـر فى اختيارى.. أنت مسـئول عـن قـرارك.. و أنـا مسـئول عـن تصرفاتـى.. و لسـت مُطالبـاً بـأن أرى رأيـك.. أو أوافـق عـلى اختيـارك.. أو أن اشـاركك فى قـرارك.. لكننـى مـع ذلـك أحترمـه ..

و ديننـا يقـرر هـذه الحقيقة فى أسـلوب مفعم بـالأدب و الخلق القويـم: «لاتسـئلون عـما أجرمنـا.. و لا نسـئل عـما تعملـون».. و تبـدو هـذه الحريـة و تلـك المسـئولية واضحـة فى مسـألة زواج المسـلمة من غـير المسـلم..»ولاتنكحوا المشركين حتـى يؤمنوا»..

الأمـر.. لنـا، نحـن المجتمـع، و ليـس إلى تلـك المـرأة التى قد تكـون اتخـذتْ قـرارا تحت ضغط مـن مشـاعرها أو حبهـا.. المرأة ..هـى المسـئولة عن قرارهـا وحدهـا.. لكننا، المجتمـع، لن نوافق عليـه.. و لـن نـرضى بـه.. ولـن نشـاركها فيـه .. لكنها حـرة.. و مسـئولة عـن قرارها.

و هـى مـن وجهة نظـر المجتمع، مخطئـة.. لكـن .. أليس الذى يزنـى مخطئـاً؟ أليس الذى يسـب و يلعـن، يخطـئ؟.. أليس الذى يكـذب يخطـئ؟.. أليسـوا جميعـا قـد خالفـوا وصيـة أو عصـوا أمـراً؟.. و مسـئوليتنا نحوهـم.. أن نرفـق بهـم.. و نعيدهـم إلى رشـدهم و صوابهم.. أليـس الأولى بتلك المحبة.. مـن أخطأت.. لأنهـا أحبت؟..

و أنـا أتحـدث مع القس سـمعان.. و أحـاول أن أقنعه أن زواج ميريـام مـن شريـف.. لا يوجـد مـا يمنعـه فى أى دين، أحسسـت أننـى أرفـس مناخـس.. لكننـى لم أعتد اليـأس.. و كنـت أرى فى عينـى الأب سـمعان نظـرة إشـفاق عـلى ميريـام.. و أحسسـت

أنـه يريـد مسـاعدتها حقـاً.. و لكنـه أيضـاً .. كان مشـفقاً عـلى نفسـه مـن الحديـث فى موضـوع .. لا يمكـن أن ينتهى مـع أهلها ببضـع كلـمات يقولهـا.. لكنـه .. و قبـل أن ننـصرف، قـد وعدنـا أنـه سـيبذل كل ما يسـتطيع.. و أنـه سيسـافر بعد عيـد القيامة إلى البلـدة بأسـيوط، ليقضى هنـاك أياماً مـع أقاربه.. و هناك سـيزور عائلـة ميريـام.... وعـلى ربنا التسـاهيل...

***

«ليس كذلك الأشرار، لكنهم كالعصافة التى تذريها الريح. لذلك لا تقوم الأشرار فى الدين، و لا الخطاة فى جماعة الأبرار. لأن الرب يعلم طريق الأبرار، أما طريق الأشرار فتهلك»

(المزمور الأول: ٤—٦)

(٩)

ميشيل

سبعة أيام انقضت منذ جئت إلى القاهرة قاصداً الكاتدرائية.. تلك الرحلة بلبلت أفكارى و جعلتنى أعيد النظر فى مستقبلى و خططى له.. سبعة أيام، انتهيت خلالها من عمل لا يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أيام.. استنفذت كل أسباب التأخير و التسويف، إلى أن أصبح لا مناص من الإنتهاء منه.. والآن أصبح لزاماً أن أعود إلى الدير.. لكن.. يا ترى هل سأعود إلى الدير لأمكث فيه و أعاود حياتى السابقة قبل تلك الرحلة؟.. أو سأعود لأنال قرار حرمان منه.. ثم أمارس حياتى مثل أى مسيحى.. أعمل .. و أتزوج.. ميريام لم تفارق خيالى لحظة طوال حياتى منذ رأيتها فى الجامعة.. إنها لا

تفـارق أحضانـى فى أحلامـى و لا لليلة واحدة.. لقد اسـتحوذتْ عـلىّ.. فى صحـوى و فى نومـى.. يبدو أن صلواتى إلى يسـوع و إلى العـذراء، أن يخلصنـى مـن إنشـغالى بهـا و التفكير فيهـا، لم تقبل.. إنهـا قـدرى.. و مـا أجملـه من قـدر.. إننـى .. حتـى و أنا أقـرر أن أصبـح راهبـاً.. كانت شـاخصة فى خيـالى و فى قـرارى.. اعتقادى أنى فشـلت أن أكسـب حبهـا و أملـك قلبها و جسـدها.. جعلنى أقـرر أن أعتزلهـا و أعتزل الدنيـا كلها.. لكن ظهورهـا المفاجئ فى حـاضرى.. جعلنـى أصل المـاضى حين كنـا فى الجامعة بمسـتقبلى الـذى أحلـم أن تشـاركنى فيه.

هـل أسـتطيع ذلـك؟.. هـل يمكـن أن أتـرك الديـر؟... إن فعلـت.. فشـلت أن أكـون راهبـاً.. و أضيـف فشـلاً جديـداً إلى قائمـة فشـلى؟!!.. بيـد أنـى سـأحقق أكـبر و أعظـم نجـاح فى حياتـى.. ميريـام.

آاااه.. جسـدى يتحرق شـوقاً إلى ضمها.. سـأمحو تلك القائمة السـوداء و أسـطر بدلاً عنها نجاحـاً تلو نجاح..

تلـك الأيام السـبعة كانت كافية لأن أتأكد من أننى لن أسـتطع العيـش بـدون ميريـام.. لقـد أججـتْ مشـاعرى الملتهبـة أصـلاً رغـم محاولاتى لإخماد نارهـا.. و أحيتْ أملى فى أن نعيش سـوياً..

تقابلـت و ميريـام أغلـب أيـام ذلـك الأسـبوع.. صحيـح أن جـورج كان دائـماً ثالثـا.. لكننـى اقتربـت منهـا خلالهـا كثـيراً.. أكثـر مـن قربـى منهـا خـلال سـنوات الجامعـة الأربعـة.. صـار بيننـا ود وألفـة.. لم يعـد هنـاك حاجـز يمنعنـى مـن التحـدث إليهـا.. بـل والخـروج معهـا.. و الضحك و السـهر.. سـعدت فى هـذا الأسـبوع سـعادة الدنيـا.. أظـن أنها تحبنـى.. قبولهـا الخروج معـى بحماسـة و عـدم ترددهـا إلا إذا كان لديها عمـل.. مرحهـا و انطلاقهـا.. غنجهـا و دلعهـا.. ثم عـدم زواجهـا إلى الآن.. كل ذلـك يعنـى أنهـا تحبنـى.. أو عـلى الأقـل تميـل إلىّ..

لـن أسـافر إلى الديـر قبـل أن أصارحهـا بحبـى و أخطبهـا.. و بعدهـا.. أذهـب إلى الديـر لأنهـى علاقتـى بـه.. رغـم صعوبـة ذلـك عـلى نفسـى.. أن تكـون راهبـاً.. و ترتـدى الاسـكيم.. يمنحـك مكانـة بـين النـاس .. و سـلطاناً عـلى قلوبهـم... لقـد جربـت ذلـك.. و يصعـب علىّ فقـده.. إننـى إخـترت حيـاة الرهبنـة بالعقـل.. و أسـتطيع أن أحـاور عقـلى .. و أن أفاوضـه.. أن أسـاومه.. أن أصـل معـه إلى منطقـة وسـط.. أمـا قلبـى.. إنـه يأبـى التنـازل عـن ميريـام أو المسـاومة بخصوصهـا.. لـن أعيش بـدون ميريـام.. ذلـك قـرارى.. سـأخلع زى الرهبـان عنـى..

ولكنـــى ســـأظل كاهنـــاً.. ســـأصبح رجــل ديـــن .. قـــس فى أى كنيســـة.. ســـأحتفظ بتقديـــر النـــاس.. و ميريـــام.

غـداً ســأتصل بالديـر و أخبرهـم أنـى سـأمكث فى القاهـرة بضعـة أيـام لظـروف صحية.. و غـداً.. أذهـب إلى المدرسـة التى تعمـل فيها ميريـام.. لأتحدث معهـا بخصوصنا.. قبل أن تنشـغل بعـد الظهـر فى دروسـها الخصوصيـة.. و قبل أن يحادثنـا جورج و يقتحـم علينـا لقاءنا.. فـلا أسـتطيع مصارحتها.

***

«فـم الصديـق ينبـوع حيـاة، و فـم الأشرار يغشـاه ظلـم. البغضـة تهيـج خصومـات، و المحبـة تسـتر كل الذنـوب . فى شـفتى العاقـل توجـد حكمـة، والعصـا لظهـر الناقـص الفهم.»

(أمثال ١٠: ١١—١٣)

(١٠)

ميشيل فى المدرسة

اليوم سأصارحها بحبى.. و ستقبله.. و هل ستجد أفضل منى؟.. صحيح أنها جميلة و من وسط راقى.. إلا أننى لست بالقليل.. مثقف.. وسيم كما قالت.. و أملك فى بلدتى ما يجعلنى أتحمل أعباء الزواج و تكاليفه بسهولة... و وظيفتى مضمونة.. سأصبح قساً فى كنيسة من الكنائس بسهولة.

قلت ذلك لنفسى و أنا أخرج من الكاتدرائية قاصداً المدرسة التى تعمل بها بالدقى.. و بعد أن اشترى جورج ملابساً لى لأستطيع الخروج بها معه و مع ميريام .. فقد اعتدت أن أخرج من الكاتدرائية مرتدياً إياها تحت الاسكيم.. و كنت إذا مررت بجورج قبل لقائنا.. أخلع عنده الاسكيم إلى أن

ينقـضى لقاؤنـا.. ثـم أعـاود فألبسـه و انطلـق من عند جـورج إلى الكاتدرائيـة.. و فى غـير ذلـك.. كنت أخـرج حامـلاً حقيبة كتف صغـيرة فارغـة.. و أدخل مرحاضاً عامـاً.. أخلع فيه الاسـكيم.. و أضعـه فى تلـك الحقيبـة.. ثـم أنطلـق فى طريقى..

هكـذا ذهبـت اليوم إلى المدرسـة.. أحمـل الحقيبـة الصغيرة على كتفـى.. و أمنيـات كثـيرة فى عقـلى و قلبـى.. و نيران شـوق تحرق جسـدى و لـن يطفئهـا إلا أحضانهـا.. وقفـت أمـام المدرسـة.. و تأكـدت مـن يافطتها.. إنها هى.. المدرسـة الى تعمـل فيها ميريام.. اسـتوقفنى موظف الأمن.. أعطيته البطاقة و قام بتسـجيل اسـمى فى سـجل الزائريـن.. و سـألنى عـن سـبب الزيارة ليسـجل ذلك فى الخانـة المخصصـة لـه.. فوجئـت بسـؤاله.. و أخـذت أفكـر.. ثـم أخبرتـه أننـى ابن خالـة الأسـتاذة ميريـام و قد جئـت إليها فى أمـر عائـلى.. نظـر إلىّ ذلـك الموظـف نظرة ريبـة.. لسـت أدرى.. هـل يسـتريب فى شـخصى؟.. أم أنـه لا يصـدق سـبب مجيئـى إلى المدرسـة.. أم أن هنـاك أمـراً يخص ميريام فى المدرسـة؟

طلـب منـى الجلـوس عـلى كرسـى أمامـه عـلى مقربـة مـن البوابـة.. و تركنـى و دخـل إلى مبنـى يشـير إليـه سـهم خشـبى مكتـوب عليه..» مبنى الإدارة «.. لعله سيسـتأذن لى فى الدخول.. و بعـد دقائق قليلة.. عـاد مجدداً.. و أخبرنـى أن أتفضل بالدخول لأقابـل المدير..

و دخلـت إلى مكتبه.. اسـتقبلنى الرجل بترحـاب.. دعانى إلى الجلـوس فجلسـت و أنـا لا أكاد أملـك نفسـى مـن الضحك على طريقـة نطقـه لبعض الحروف.. سـألنى:

- حضرتك.. ابن خالت مس ميريام؟

- أيوه يا افندم.

- أهلا بيك.. أرجو إن مدرستنا تكون عجبتك!!..

قالها الرجل و هو ينظر إلىّ نظرة أقلقتنى.. ثم تابع يقول:

مدرســتنا لهــا ســمعتها و تاريخهــا.. و المدرســين هنــا.. مابيدخــروش جهــد .. و وقتهــم كلــه للطلبــه..

أحسســت بالحــرج.. و تخيلــت أن الرجــل ســيطردنى مــن أمامه.. انكمشـت داخل الكرسـى الـذى أجلس عليه.. شـعرت أننـى كالفـرخ المبلـول فى ليلـة شـتاء قـارص..

الرجـل يقـول لى صراحـة إنـه لا يصدقنـى.. حقـاً.. إذا كنـت ابـن خالتهـا.. فلـماذا لم أذهـب إليهـا فى بيتهـا؟.. مـاذا يظـن بـى ذلـك الرجـل الآن؟.. و هـل يفعـل ذلـك مـع كل المدرسـين؟.. لا أعتقـد ذلـك .. ربـما الأمـر متعلق بشـخصيته.. لعله متسـلط.. وربـما الأمـر يخص ميريـام.. أشـعر أن هناك أمـراً ما لـه علاقة بها يـدور فى رؤوس العاملـين بتلك المدرسـة..

رفـع المديـر رأسـه و نظـر إلى الطرقة أمامـه.. و نـادى بصوت عالى:

- مستر إسلام..

ثم نظر ناحيتى و قال:

كويـس .. مسـتر اسـلام.. زميـل ميـس ميريـام فى مجموعـة العلـوم.. هـو هيوصلـك ليهـا..

و جاء مستر اسلام.. و حيا المدير.. الذى سأله:

- ازيك يا مستر اسلام.. بتعمل إيه فى مبنى الإدارة؟!!

- والله يـا افنـدم.. أنـا كنـت بـس.. بأقـدم طلب.. إنـى بكره آخد أجـازة..

- خير.. فى حاجه والا إيه؟!!

- ظرف عائلى طارئ.. و لازم أسافر بكره للبلد ضرورى..

- انـت عـارف يـا مسـتر اسـلام.. امتحانـات التـيرم التانـى قربـت جـدا.. و كـمان كام يـوم اجـازة عيـد الإخوة المسـيحيين (و نظـر إلىّ).. و شـم النسـيم.. و أنـا عـاوز التـزام اليومين دول!!

- معلهش يا افندم.. هو بكره بس..

- ماشى.. مفيش مشكلة.. اعتبر الطلب اتوافق عليه..

كنت اسمع حوار المدير مع مستر اسلام هذا و أنا اجلس على الكرسى أقلب ناظرى بينهما.. رجل عجيب ذلك المدير.. لقد تغير كلامه لى.. أين جدية المدرسين؟!! أين وقت الطلبة؟!!.. لقد تغير كل ذلك مع هذا المستر.. حتماً.. هناك أمر ما يخص ميريام يدور فى المدرسة.. نظر إلى المدير و هو يخاطب اسلام قائلاً:

- ياريت توصل الأستاذ معاك لميس ميريام..

و فى الطريق..سألنى اسلام:

- حضرتك .. قريب ميس ميريام»

أدرت الأمر فى عقلى سريعاً.. إننى أريد أن أعرف ماذا يدور فى المدرسة بخصوصها.. و إذا أخبرته أننى قريب لها فسيتحفظ فى الحديث معى.. ناهيك عن نظرة المدير التى ربما ألاقيها فى عينى اسلام هذا هو الآخر.. لكن الأهم هو أن أستوضح الأمر.. أجبته متردداً:

- فى الحقيقة.... لأ..

- آاااه ... يبقى حضرتك عاوزها فى أمر.. شخصى.. مش كده برضوا؟!!

قالها و هو يلتفت ناحيتى.. و كنت قد نسجت فى عقلى مبرراً لمجيئى إلى المدرسة.. توقفت عن السير.. فتوقف اسلام هو الآخر.. قلت بصوت منخفض:

- تقدر تقول .. إنى جاى فى مهمة!!

- مهمة!!!.. إيه يا عم الكلام الكبير أوى ده؟!!

ابتسمت .. و قلت:

- لأ.. خيالك ما يروحش لبعيد.. هو موضوع بسيط .. بس ياريت محدش يعرف بيه..

و بدتْ فى وجهه أمارات الإهتمام.. و قال:

- ايه الموضوع ده .. خير؟!!..

نظرت إليه.. و كأننى أؤكد بعينى على عدم معرفة أحد بهذا الأمر.. فأكد لى أن لا أحد سيعرف به.. فقلت له:

- أنا باشتغل فى مدرسة دولية.. و كنا محتاجين مدرس ساينس كفء.. و فى حد اقترح علينا ميس ميريام.. فأنا .. المدرسة كلفتنى إنى أسأل عليها الأول..

كان يتعجب و هو يسمعنى.. ثم قال فى سخرية:

- مدرسة انترناشيونال مرة واحده!!..

ثم تغيرتْ نبرة صوته إلى جدية.. و أردف يقول:

انـت متخيل .. إن أنـا مقتنع باللى بتقوله ده!!.. هو فى مدرسـة بتسـأل عن مدرس بالطريقة دى؟!!

أحسســت بالإرتبـاك.. إلتحاقــى بالديــر بعــد تخرجــى فى الجامعــة.. و عــدم ممارسـتى لأى عمــل فى المجتمــع.. جعــل خبرتــى و معلوماتــى العمليـة محـدودة.. يبـدو أن روايتــى غـير مُقنعـة.. و لكـن مـا العمـل؟.. لا يمكـن التراجع عنهـا.. و لابد مـن الإسـتمرار فيهـا.. قلـت لـه:

- فى الحقيقـة.. المدرسـة كلفتنى فعلا إنى أسـأل عنها علشـان نتأكـد مـن خبرتهـا و مسـتواها العلمـى.. بـس يمكـن .. أنـا اللى اخـترت الطريقـة الخطأ..

هزّ اسلام كتفه.. فى محاولة منه لتقبل قصتى.. ثم قال:

- جايز!!!!..

تنفسـت الصعـداء.. يبـدو أنـه قبـل روايتـى.. و اقتنـع بهـا.. اسـتبشرت.. و لكـن سرعـان مـازال عنـى ذلـك.. عندمـا قـال هازئـاً.. بنـبرة تَشـفى:

- ضهاهاى... يا عينى عليك يا احمد..!!

- مين احمد ده؟

- دا.. يا سيدى .. مدرس الفيزيا عندنا.. و كمان .. أنتيم ميريام.. أو تقدر تقول.. ميريام عامله زى ظله.. و ما تعرفش إن كانوا متجوزين.. و الا مترافقين.. لكن الأكيد.. انهم ما بيفارقوش بعض..

السافلة.. الساقطة.. تخدعنى.. أنا؟!!.. تلاطفنى.. تغازلنى.. و هى تخوننى.. و مع رجل .. مسلم.. و حتى لو كان مسيحيا.. لا فرق عندى.. فهى خائنة.. لكن شكرا للرب.. لقد كنت على وشك أن أحُطم أحلامى فى الدير.. و أن أقلب حياتى رأساً على عقب من أجل تلك الخائنة.. لن تفلت منى.. و لن أترك أحمد هذا يهنأ بها .. و يستمتع بجسدها.. إنها .. إن لم تكن لى.. فلن تكون لأحد غيرى.. أو على الأقل .. لن تكون لأحد تختاره هى و تريده.. لن أتركها تفعل ما تشاء..

- انت سرحان فى إيه؟!!

كان ذلك سؤال اسلام.. الذى أخرجنى من شرودى.. يبدو أنه .. لا يحب أحمد هذا.. أو على الأقل يحسده على علاقته بميريام.. نبرة صوته.. طريقة كلامه.. تعبيرات وجهه.. كل ذلك يؤكد ظنى.. سألته:

- هى ميريام دى... جميلة؟

و فى غرور .. أجابنى:

- مش أوى يعنى.. بس هى.. سكسى بجد..

و أنـا أيضـاً أراها.. سكسـى أيها الأحمـق .. لابد سـأنتقم منك يومـاً.. لكنى أحتاج إليـك اليوم..

إنه يهوى ميريام و يتمناها.. سألته:

- بـس انـت.. مفيـش حاجـه.. كـده و الا كـده حصلـت بينكـم؟

- هى.. هى حاولت معايا.. بس أنا مابحبش المشاركة!!

يكـذب.. و لا يحسـن الكـذب.. يعنى إنـه غبـى.. لا يعنينى.. فـكل مـا يهمنـى.. هـو إفسـاد علاقة ميريـام بأحمـد هـذا.. و بأى مخلـوق.. لـن يهنـأ بها أحـد غـيرى.. أو على الأقـل لـن أدعها تهنأ مـع مـن تريـد.. سأفسـد عليها حياتهـا.. لـن أجعلهـا ترتبط بمن تحـب.. لماذا أكـون وحدى الـذى يفشـل فى الإرتبـاط بحبيبته؟.. هـى أيضاً لـن ترتبـط بحبيبها..

كنـا، أنا و اسـلام، مازلنـا وقوف.. بـدأت اتحرك ببـطء.. فبدأ اسـلام يتحـرك لحركتى.. كل ما كان يشـغلنى فى تلـك اللحظة .. أن أغـادر المدرسـة دون أن ترانـى ميريام.. أو أن تعلـم بمجيئى.. كنـت أحـترق فى داخـلى غضبـاً و حنقـاً عـلى ميريـام و حبيبهـا..

و مـع ذلـك تظاهـرت بالهـدوء و عـدم المبـالاة، سـواء بهذيـن الحبيبـين، أو بـكلام ذلـك التافـه اسـلام عـن ميريام و الـذى كان يستحق عليه لكمـة فى وجهه لـولا إحتياجى إليـه لمعرفة تفاصيل أكثر.

أخـبرت اسـلام أننـى سـأنصرف.. لأنـه لا ضرورة أن أقابـل ميريـام.. فهـى فى الغالـب.. سـترفض تـرك تلـك المدرسـة.. و ذلـك طبعـاً مـن أجـل حبيبهـا..

اتفقنـا أن نتقابـل مسـاءً بحجـة أن يسـاعدنى فى ايجـاد بديـل للعمـل بالمدرسـة المزعومـة.. و ربـما كان هـو.. اسـلام .. ذلـك البديـل.. كل ذلـك لأننـى كنـت أريـد أن أعـرف منـه المزيـد.. سـألته:

- تحب نتقابل إمتى .. و فين؟

- نتقابل على... ٩ كده.. كويس؟

إذن سـأبيت عنـد جـورج.. لـن يكـون مناسـباً أن أعـود إلى الكاتدرائيـة متأخـراً، ثـم إننـى لم أعـد أطيـق المكوث بهـا.. قلت ذلـك فى نفسـى.. و تابـع اسـلام كلامـه قائـلاً:

- أمـا فـين دى بقـى يا سـيدى... الجـو بقـى دافى.. ايـه رأيك ناخـد اتنـين آيس كريـم فى بيـت الدونتـس الـلى فى البطل؟..

ولســت أدرى.. أيــن كان عقــلى.. يبــدو أن صدمتــى فى ميريـام.. أو أن إحساسـى أن أحـداً غـيرى يمتلـك جسـدها.. أو لعلـه انشـغالى فى التدبـير للإنتقـام منهـا و مـن حبيبهـا.. أفقدنـى السـيطرة عـلى لسـانى.. بـدون تفكـير.. وجدتنـى أجيبـه:

- بلاش .. أصل ميريام بتروح هنااااا.....

و انعقـد لسـانى بعـد أن أوقـع بـى بين يـدى اسـلام.. رمقنى بنظـرة ملؤهـا الريبـة.. و الإتهـام.. و التعجب.. سـألنى:

- و انت عرفت ازاى إنها بتروح هناك؟!!

بالطبـع.. كنـت و جـورج و ميريـام قـد ذهبنـا إلى هنـاك ذات مـرة خـلال الأسـبوع المـاضى.. و أسـقط فى يـدى.. و لم أجـد جوابـاً على سـؤاله.. يبـدو أنه لا مفـر من أن أصارحـه.. ازدردت لُعابـى.. و قلـت له:

- نتقابـل بالليـل عـلى أى قهـوة فى ميـدان الدقـى.. و هأقـول لـك عـلى كل حاجة..

***

«وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

(إبراهيم: ٢٢)

(١١)

بعلزبول

آلاف .. ربـما ملايـين السـنين.. لم أشـغل بـالى بعدّهـا.. فقـد كانـت نفسـى مشـغولة بابـن آدم.. أزيـن لـه المعصيـة.. و الوقوع فى الخطيـة..

سـنوات طويلـة.. كثـيرة.. و أنـا لا يشـغلنى سـوى إفسـاد هـؤلاء البشر.. اسـتجمعت كل طاقتى و وقتـى و إرادتى لتحقيق ذلـك.. آلاف.. و ربـما ملايين السـنين.. لم أذق فيهـا الراحة.. و لم أعـرف فيها الكسـل..

الكفـر.. الزنـا.. الفاحشـة.. الربـا.. النفـاق.. الكـبر.. الكـذب.. و كل أنـواع المعـاصى و الذنـوب.. أوقعـت ابـن آدم فيهـا.. و دربتـه عـلى إتقانهـا.. و تعهدتـه بالرعايـة و المتابعـة..

الحقـد.. الكراهية.. الحسـد.. و كل أشـكال المرض النفسـى و الإجتماعـى.. بـذرت بذورهـا داخلـه.. فوجدتْ أرضـاً خصبة.. و أنبتـت أشـجاراً يافعـة.. مورقـة مـن الخلافـات و الشـقاقات و الحـروب بـين أبنـاء آدم و بعضهـم البعض..

فى بدايـة الأمـر.. كان أبنـاء آدم قليلـين.. اعتمدت على نفسـى فى غوايتهـم.. كان العمـل شـاقاً و مضنيـاً.. قـرب عهدهـم مـن أبيهـم.. و حكايـة طـرده مـن الجنـة.. كانـت عالقـة فى أذهانهم.. يذكرونهـا دائـماً فيخافـون الوقـوع فى المعصيـة.. لم أتـرك بابـاً للوسـاوس إلا و طرقتـه.. و لم أدع حيلـة إلا و اسـتعملتها..

و مـع مرور الوقـت.. كثر بنـو آدم.. و لم يعد مناسـباً أن أعمل بمفـردى.. فى البدايـة اسـتعنت ببعـض أبنائى و أحفـادى.. كانوا بعاليـم.. أبالسـة بالفطـرة.. و كانـوا يستشـيروننى فيـما يعـنّ لهـم مـن مشـكلات أو مـا يسـتجد أمامهـم مـن مواقـف.. أو مـا قـد يُصعـب عليهـم مـن مهام..

كنـت أتابـع كل واحـد منهـم فى عملـه.. لذلـك لم يكـن هناك فـرق كبـير بـين عمـلى بمفـردى و بـين عملهـم معـى.. لم أُجـنِ الراحـة بوجودهـم لمسـاعدتى..وكان لابـد مـن حـل..

هدانـى عقـلى إلى إنشـاء .. مـا قـد يسـمى بلغـة بنـى البـشر.. أكاديميـة.. أجـل أكاديميـة لتخريـج الشـياطين المحترفـين.. إنها اخـتراع.. لـو أنصفـت لحصلت مقابلـة على جائـزة كبـيرة.. مثل تلـك التـى يسـمونها « نوبـل «.. إن كان هنـاك جائـزة أكـبر..

تخـرج فى تلـك الأكاديميـة .. الناِبهـون مـن أحفـادى.. أجيال و أجيـال مـن الأبالسـة الماهريـن الذيـن أوقعـوا بالكثير مـن بنى آدم.. و نـشروا الـشرور والآثـام و الأحقـاد.. و كثُـر فى الأرض الظلم و الفســاد..

أحسسـت ببعـض الراحـة.. و بـدأت أخلـو بنفسـى بعـض الوقـت للتفكـير فى مسـتقبل الأكاديميـة.. و تطويـر أدائهـا.. لقد نجـح أبنائـى و أحفـادى أيّـما نجـاح.. حققـوا الكثير مما حلمت به مـن إهـلاك لأبنـاء آدم..

لكـن.. بقـى أمـر لم يسـتطعوا اسـتيعابه.. طبيعـة ابـن آدم..أنا وحـدى، بينهـم، الـذى رأيـت آدم و هـو بـين المـاء و الطـين.. أنا وحـدى الـذى رأيـت كيـف أصبحـت المـادة .. روحـاً تتنفـس.. تنمـو.. تتكاثـر.. تفكـر.. تبـدع.. و تعبـد خالقهـا.. جميـع أبنائى مـن الأبالسـة الجـدد لم يـروا ذلـك.. و لـن يفهموا، مهـما حاولت معهـم، طبيعـة ابـن آدم الحقيقيـة.. و لن يحققـوا بالكلية مـا آليت

علـى نفسـى تحقيقـه منـذ البدايـة.. لـن يسـتطيعوا فهـم روح ابن آدم.. و بالتـالى لـن يمكنهـم إغوائهـا.. لـن يحقـق ذلـك إلا إبـن آدم نفسـه.. و لمَ لا؟.. و هـو الوحيـد الـذى يسـمع صوت نفسـه بداخله؟

كان لابـد مـن إنشـاء فـرع جديـد بالأكاديميـة.. فـرع أبلسـة الآدميـين.. لتخريج الشـياطين مـن البشر.. و تم بالفعـل.. و كان الفتـح المبين..

فى فـترة زمنيـة قصـيرة بالحسـاب الكونـى.. توسـعت الأكاديميـة.. و تعـددت فروعهـا بتعـدد الأرض المسـكونة.. و بلـغ خريجوهـا كثـرة و تنوعـاً.. مـا لم يكـن فى خيـالى.. و أبـدع أبناؤهـا مـن أسـاليب الغوايـة والإفسـاد.. مـا لم يخطر ببـالى.. أنا بعلزبـول.. رئيـس الشـياطين.

إننـى لسـت فى حاجـة إلى أن أعـدد لكـم مظاهـر نجاحاتهم.. كلكـم يـرى وجـه الأرض.. مـن شرقهـا إلى غربهـا.. و مـن أقصاهـا إلى أدناهـا.. و يـرى الـشرور و الآثـام..و الظلـم و القهـر.. و الحـروب و الخـراب.. و الدمار والمجاعـات.. و الكثير و الكثـير.. كل ذلـك مـن إبـداع أبنائـى .. أبالسـة البـشر.

و هكـذا.. أصبـح لـدى الوقـت لأنعـم بالراحـة بـين حـين و آخـر.. و أن أتجـول.. مُحلَقـا فى الجـو أو سـائراً بـين بنـى البـشر.. أرقـب أحوالهم.. و أتسـمع حواراتهم.. لأوسـع قاعـدة بياناتى.. فقـد اقتـصر دورى عـلى المشـورة و الوسوسـة مـن وقـت لآخر، عندمـا يحتـاج الأمر.

و الليلـة.. قـررت أن أقضيهـا فى الدقـى.. و هـا أنـا أتجـول فى شـوارعها.. أتسـمع مـا يـدور بـين الناس..

حـى راقـى!!.. مـن بـين انجـازات أبنائـى.. أبالسـة البـشر.. تغيـير المفاهيـم.. أو إكسـابها معنـى عـلى غـير حقيقتهـا.. أصبـح الرُقـي. يعنـى أن ترتـدى ملابـس مـن مـاركات معينـة.. و أن تركـب سـيارة موديـل العـام.. و أن تحمـل موبايـل فاخـراً.. و لا مانـع مـن بعـض كلمات مـن لغات غـير لغتـك.. و انمحـى تماماً مـن قامـوس النـاس أن الرقـى سـلوك..

مفاهيـم كثـيرة.. و أفـكار عديـدة.. قـد تبدلـتْ.. أحـكام و فتـاوى ما أنـزل الله بها من سـلطان.. لكنهـا ابتدعتْ بسـلطانى.. و كتبـت لهـا الـرواج و القبـول عنـد الغالبية..

رائـع.. و ممتـع.. و مثـير.. لصانعـى الـشر أمثـالى .. أن يـروا العقـل و إنتاجـه الفكـرى فى خدمـة الإنحـراف و الآثـام..

لقد قررت أن أقضى الليلة فى الدقى.. ليس للمرح أو اللهو أو إضاعة الوقت فيما لا ينتج شراً أو يثمر دماراً.. أنا لا أفعل ذلك..

لقد علمت أن اثنين من خريجى الأكاديمية.. سيلتقيان الليلة على مقهى من مقاهى الميدان.. إنهما ليسا كباقى الخريجين.. على الأقل بالنسبة لى..

أقرب أبنائى إلى نفسى.. ليس من يوقع إنسياً فى معصية.. فربما يتوب الإنسي و يضيع عملنا سُدى.. و كثيراً ما حدث ذلك.

أقرب أبنائى إلى نفسى.. من يحارب المحبة.. و يغرس الكراهية.. المحبة عدوى اللدود.. و الكراهية.. سلاحى البتّار... لذلك كان لقاء اسلام و ميشيل جديراً بأن أحضره.. و أن أشاركهما فيه... إنى أراهما يتصافحان.. ما أبعدهما ظاهراً.. و ما أقربهما باطناً..

كل واحد منهما يتخذ مكانه على كرسيه أمام الآخر.. من حسن الحظ أن بينهما مقعداً ثالثاً.. سأتخذه لنفسى..

– قل لى بقى... إيه الموضوع بالضبط؟!!

كان ذلـك اسـلام.. يطلـب مـن ميشـيل أن يـشرح لـه حقيقـة الأمـر.. و مـا هـى علاقتـه بميريـام؟ .. و مـاذا يريـد منهـا؟.. أنـا أعلـم كل التفاصيـل.. لقـد وضعـت بنفسـى بعضا منهـا.. و البعـض الآخـر.. هـو مـن بنـات أفكارهمـا..

- ... و أنـا.. بعـد مـا دمرتْ حياتـى مرتين.. قـررت إنى مش هاسيبها.

كان ذلـك ميشـيل مرتديـاً ثيابـه الحقيقيـة.. مـا أقبحـه فى زى الرهبـان.. و مـا ابعـده منهـم.. يظـن أولئـك أن بوسـعهم جعْـل الحب شـعاراً للإنسـيين.. وأنـا موجود؟؟!!..... يسـوع نفسـه.. لم يسـتطع..

أرى اسـلام يهـم بالإجابـة.. كلا .. سـأجعل الذئـب الـذى بداخلـه يشـحذ أنيابـه..

- و أنا إيه علاقتى بالموضوع ده؟!!

- ازاى يا مستر؟!!

- ما.. بلاش مستر دى بقى.. احنا بقينا أصحاب خلاص..

- ماشى يا سلم..

هااا .. ميشيل يداعب اسلام.. ما أسعدنى بالتوافق بينهما.. ميشيل يتعجل الخلاص.. لم يكن خلاصه فى صلب يسوع.. و لا فى معموديته التى نالها و هو طفل.. إنه يرى خلاصه فى أن تؤتى كراهيته لميريام و أحمد ..ثمارها..

- احنا الاتنين.. كنا عاوزين ميريام.. شايفينها زى انت ما قلت.. سكسى.. و أنااا.. إذا كنت مش هاطولها.. يبقى مش هاسيب حد غيرى يتمتع بيها.. احمد ده .. برغم انى ماعرفوش وماشفتوش.. بس أنا باكرهه.. كفايه انه بيلمس ميريام.. بياخدها فى حضنه.. و بيشم جلدها.. و يتنفس انفاسها.... انا باكرهه.. و باكرهها هى كمان ومش هاسيبهم.. أبدا.. يتمتعوا ببعض..

اسلام يشعر بالسعادة لكلام ميشيل.. يكفى أن هناك من يشاركه الكراهية.. « و أظن انت معايا فى ده».. كان ميشيل يكمل حديثه.

- أنا فعلا باكره احمد.. عامل فيها مثالى.. و هو مقضيها.. و صحيح انا باتمنى ميريام.. بس ده مش حب و مشاعر و كده يعنى.. لكن .. طالما مش هاقدر اطولها يبقى زى انت ما قلت.. مانسيبهومش يتمتعوا ببعض..

مرحـاً.. مرحاً.. أصبـح التوافـق اتفاقاً.. تلك لحظـة فاصلة.. و تحتـاج إلى فنجـان من القهوة.. لا تتعجبـوا.. أنا أشرب القهوة.. بـل إننـى أشـارك أبنائـى و تلاميـذى كل لحظـات حياتهـم.. وسوسوسوسوسـوس.. همسـت بهـا فى أذن ميشـيل..

– مـا تيجـى نـشرب فنجان قهوة كـده.. و نظبـط.. و نفكر مع بعـض كده هنعمـل ايه..

ردّ عليه اسلام:

– أوك يا ميشوو..

***

«اجعلني كخاتم على قلبك.. كخاتم على ساعدك.. لأن المحبة قوية كالموت.. الغيرة قاسية كالهاوية. لهيبها لهيب نار لظى الرب. مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة، و السيول لا تغمرها. إن أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة، تحتقر إحتقاراً»

(نشيد ٨: ٦—٧)

(١٢)

ميريام

لـولا اقـتراب موعـد الامتحانـات.. كنـت سـافرت لأغـير مزاجـى و أنعـش ذهنـى.. عـلى الأقـل فى أيـام العيـد الـذى بقـى عليـه يومـان.. أشـعر بالملـل و الضجـر.. شريـف مشـغول بالتجهيـزات لمكتبـه الجديـد.. و أحمـد!!.. حالـه مثـل حـالى.. التجهيـز للإمتحانـات يأخـذ كل وقتـه.. حتـى فى المدرسـة.. يتـولى إدارة الكنـترول.. و هـو عمـل يحتـاج إلى تركيـز شـديد.. هـذا بالإضافـة إلى أننـا كنـا قـد قررنـا أن نقلل مـن جلوسـنا معاً بالمدرسـة.. خاصـة بعـد أن أصبحنـا حديـث المدرسـين بهـا.. إنهـم مـرضى.. كل لـص يظـن أن الجميع مثلـه لصـوص.. أو كما يقولـون « رمتنـى بدائهـا و انسـلت «..

لـن يفهمـوا طبيعـة علاقتنـا إلا إذا كانـوا مثل أحمـد.. و هل فى الوجـود مثـل أحمـد؟!!.. فى رقتـه.. و عطفـه و حنانـه.. و نضجه و فهمـه.. و إلتزامـه و تدينه؟!!..

ليـت كل النـاس مثـل أحمد.. لقـد أصبح أخـى و صديقى.. و مكمـن سرى.. وموضـع مشـورتى.. و أحيانـاً أراه أبـى.. أحياناً كثـيرة.. أشـتاق إلى سـماع صوتـه و الحديـث معه أكثر من شـوقى إلى شريـف.. مـع أن حبـى لشريـف لا يوصـف.. و أحياناً أشـعر أن وجـود أحمـد فى حياتـى.. جعـل إرتباطـى بشريـف يـزداد.. لسـتُ أدرى كيـف.. و لكننـى أشـعر بذلك.

هـذه الأيـام صعبـة على نفسـى لأنها تمـر بـدون أحمـد تقريباً.. كل يـوم .. أنهـى عمـلى.. أطمئن عـلى أحمد.. أغـازل شريف.. ثم لا شـئ بعد ذلـك أفعله..

حتـى ميشـيل.. اختفـى فجـأة.. و هاتفـه مغلـق دائـماً.. إنـه حتـى لم يـودع جورج.. لقـد ذهـب ليسـأل عنـه فى الكاتدرائية.. فأخـبروه أن الراهـب أنطونيـوس، ميشـيل طبعـاً، أنهـى عملـه و المفـترض أنـه قـد عـاد إلى الديـر.. حتـى الكاتدرائيـة لا تعلـم بشـكل قاطـع أين هـو.. غريـب ميشـيل!!.. كنـت أراه شـخصاً لطيفـاً.. لكـن أحمـد لم يوافقنـى الـرأى فى ذلـك..

كنت أعرض عليه صور لقاءاتنا و جورج.. فقال:

– مـش عـارف يا ميريـام.. مـش مرتـاح لميشـيل ده!!.. عينيه مــش بريئة..

– لأ بقى.. لغة العيون دى بتاعتى..

– العيـون .. تفضـح المكنـون.. حقيقى.. بس قـراءة اللغة دى .. فراسـة.. و إحسـاس.. و أحيانـاً .. فراسـة الواحـد بتخونه.. و إحساسـه بيخدعـه.. عمومـا .. أنـا مش مطمـن له..

و أمـى.. حالتهـا الصحيـة أصبحـت سـيئة.. أنا قلقـة عليها.. أطمئـن عـلى حالهـا مـن « أم سـيد « التى تخدمهـا و تبـاشر العناية بهـا عندمـا أكـون فى عمـلى.. إننـى حقـاً مقـصرة فى حقهـا.. و أهملهـا كثـيراً بحجـة العمل لأقـضى الوقت مع أحمـد أو شريف.. يغضبها ابتعادى كثيراً عن البيت.. و لسـت أدرى ماذا سـتصنع.. أو كيـف سـيكون حالها..بعـد أن أنفـذ قـرارى الـذى اتخذته؟!!

لقـد قـررت.. و شريـف.. أن نتـزوج بعـد العيـد.. صحيـح أن الأب سـمعان سيسـافر إلى بلدتنـا بعـد العيـد.. يعنـى بعـد أيـام قليلـة.. لكننـى لا أتوقـع خـيراً مـن وراء رحلته.. سـأتزوج شريـف بعـد العيـد.. حتى لو وقفـتْ الدنيـا كلها أمامـى.. يكفى أن أحمـد سـيكون بجـوارى.. و شريـف فى أحضانـى..

كل مـا يشـغلنى هـو أمـى.. هـل أخبرهـا؟.. أم أتـرك الأمـر ليكـون واقعاً لا تسـتطيع تغيـيره؟ .. أم أبثه إليها رويـداً رويداً؟..

مسكينة أمى.. تريد سعادتى.. و تبحث عن هنائى.. و ضمان مستقبلى.. لكنها لا تدرك أن كل ذلك مع شريف.. لو أنها نظرت إلى علاقتى به.. بقلبها فقط.. قلب الأم التى تحب ابنتها.. لو أنها تدرك أننى لم أعد تلك الطفلة الصغيرة التى ترعاها و تخشى عليها و تظن فيها سوء التصرف أو قلة الخبرة بالحياة.. لو أنها لا تستمع إلى ذلك الصوت الذى يأتى من غيابة التقاليد.. فيوقف عقلها و يغطى قلبها..

و مع ذلك .. أنا أعذرها.. و أشفق عليها من قرارى.. ليس أقل من أن أقضى معها أغلب الوقت.. على الأقل فى تلك الفترة.. و ربما.. بجلوسنا سويا.. نصل إلى وفاق فى أمر شريف..

قررت أن أعود إلى البيت بعد المدرسة مباشرة.. كانت هناك ساعة تفصل بين عملى فى المدرسة و عملى الخاص بعد الظهر و كنت أقضيها مع أحمد.. لكنه مشغول فى الكنترول و لن يخرج منه قبل الرابعة.. سأذهب إلى أمى..

و فى البيت.. استقبلتنى أم سيد بكل عبارات التعجب و التهكم لعودتى إلى البيت فى ذلك الوقت على غير عادتى.. حبيبتى يا أمى!!!..

أخبرتنى أم سيد أنها نائمة بعد أن تناولت الدواء.. اختلست نظرة إليها و هى على سريرها من جانب باب غرفتها.. وجهها

مجهـد.. و صدرهـا يعلـو و يهبـط.. يبـدو أنهـا تتنفـس بصعوبة..

دعـوت الـرب أن يشـفيها و لا يحرمنـى منهـا... أغلقـت باب حجرتهـا بهـدوء عندما سـمعت جرس الشـقة.. أسرعتْ أم سـيد لتفتـح باب الشـقة.. و سـمعت صوت القـادم إلينا يسـأل عنى.. صـوت غليظ غلظـة القلب الذى أرسـل هـواءه ليهز أوتـاراً مثل حبـال القيـد.. فأصـدرت عـواء ذئـب بـين القبـور.. إنـه صوت كيرلـس ابـن عمـى.. مـا الـذى أتـى بـه عـلى غـير موعـد و دون سـابق اتصـال؟!!.. و عندمـا لمحنـى.. تقـدم إلى الداخـل دون دعـوة.. كلـما رأيتـه امتـلأت رعبـاً مـن شـاربه العريـض الـذى يغطـى فمـه.. و عينـاه الجاحظتـان المسـتديرتان.. تركتنـا أم سـيد و دخلـتْ حجـرة أمى..

و عينـاه مفتوحتـان لا ترمشـان و لم يرفعهـما عنـى.. تقـدم كيرلـس نحـوى ببـطء أفعـى تتحـين لحظـة الإنقضـاض عـلى فريسـتها.. و بصـوت كالفحيـح.. قـال:

- كيفك يا مريم؟

- نشـكر ربنـا.. بـس قلـت لـك مية مـرة .. اسـمى ميريـام .. مـش مريم!!

- ما هو دلع عمى فيكى ده.. هو اللى فسد حالك..

- انت بتقول ايه.. و ازاى تكلمنى بالطريقة دى؟!!

- انتى لسه ليكى عين تعلى حسك بعد ما كنتى هتجيبى راسنا فى الطين!!!

- انت بتتكلم عن ايه يا بنى آدم انت؟!!

- الواد المسلم.. اللى انتى عاشجاه!!

كيف عرف كيرلس عن حبى لشريف؟ .. و من الذى أخبره؟.. و ماذا يعرف أكثر؟..

عقدتْ المفاجأة لسانى.. ملأ الخوف قلبى.. خفت على نفسى.. و على شريف.. و على أمى... ذلك المجنون!!.. من الممكن أن يفعل أى شئ.. والتعصب نار تحرق ..الحكمة فى العقول.. و مخافة الرب فى القلوب.. وسكين تقطع كل الروابط.. و يعمى بريق حدها المشحوذ العيون.. فلا تعرف نفس المتعصب معروفاً.. و لا تنكر منكراً.. و عبثاً حاولت أن أنكر ما يقول.. قلت له:

- إيه التخريف اللى بتخرفه ده؟!!.. و مين قال لك الكلام الفاضى ده؟

- تخريف؟؟؟.. و كلام فاضى.. هيكدب ابونا انطونيو اياك؟؟؟

من يكون أبونا انطونيو هذا؟ هل يعقل أن يكون ميشيل؟!!.. مستحيل.. إنه حتى لا يعرف شيئاً عن علاقتى بشريف.. سألته:

- أبونا انطونيو ده.. رجل كبير؟ .. و الا شاب؟

- شاب زى فلجة الجمر.. كانه يسوع دخل علينا.... اسمعى يا مريم..

قل ما شئت.. فإن عقلى لن يستعبه حتى يفيق مما أصابه.. ميشيل؟؟!!.. لماذا؟؟!!.. و من أين علم بهذه العلاقة؟!!.. و لماذا لم يفاتحنى طالما أنه علم؟؟!!.. ماذا سيجنى من وراء ذلك كله؟!!

كنت فى ذهول مما اسمعه .. و من صدمتى فى ميشيل.. ثم أفقت على كيرلس و هو يقول:

- لملمى خلجاتك انتى و امك.. و هاعدى عليكم كمان ساعتين.. ندّلوا على البلد.. و هناك.. نشوفوا صرفة فى المصيبة السوده دى..

أحسست بغليان دمى فى عروقى .. كيف يتدخل فى حياتى إلى ذلك الحد؟!! هل لأنه ابن عمى؟.. و أين كانوا بعد موت أبى؟.. وجدتنى.. بدون أن أدرى.. أقول له فى إنفعال:

- خلقـات ايـه؟ و بلـد ايـه؟ .. و ايـه الهبـل الـلى انـت بتقولـه ده؟!!

و هـوتْ يـده الغليظـة عـلى وجهـى بصفعـة كادت أن تفقدنى وعيـى.. ثـم قال:

- أنـا لـولا .. مجـدر تعـب مرت عمـى.. كان بجـى لى تصرف تانـى معاكى..

كان الغضـب قـد وصـل بـى إلى أقـصى مـداه.. صرخـت فى وجهـه:

- انـت مالكـش انـك تتدخـل فى حياتـى.. أنـا حـرة.. أعمل الـلى أنا عـاوزاه..

أجابنى محذراً:

- ماتضطرنيش إنى.. أعمل اللى باتجنبه!!

- هتعمل ايه يعنى.. هتدخلنى الدير؟!!

أجابنى فى حزم من اتخذ قراراً:

- ماعندنـاش بنـات تـروح الديـر.. احنـا مـش جليلـين فى البلـد.. طب و المسيح الحـى.. ان مـا اتعدلتى لاكـون جاتلك... همـا سـاعتين.. و هاعـدى عليكـى و نعـاودوا للبلـد..

و خـرج و أغلـق البـاب وراءه بشـدة.. و أغلـق كل أبـواب الأمـل أمامـى.. بـل أغلـق بوابـات قلبى.. فلـم يعد الـدم يسرى فى شراييـنـى.. و تجمـد فى عروقـى.. و أظلمـتْ الدنيـا كلهـا فى عينـى.. و فارقـت روحـى جسـدى .. فـصرت ميتـا يقـف عـلى قدمـين.. و أعادتنـى إلى الواقـع مجـدداً .. صرخـة أم سـيد مـن غرفـة أمـى.. تقـول:

– الحقينى يا مريم يا بنتى .. الحقينى..

جريـت مسرعـة إلى غرفـة أمـى.. وجدتهـا ملقاة عـلى الأرض بجـوار السريـر.. فاقـدة للوعى..هويـت عليهـا.. ضممتهـا إلى صـدرى.. رحـت أنـادى عليهـا مثـل طفـل تائـه .. لم أدرك عمق حبـى لأمـى .. و مـا تمثلـه فى حياتـى إلا فى تلـك اللحظـة التـى شـعرت فيهـا أننـى ربـما أفقدهـا.. قـد تختلـف البنت مـع أمها فى الآراء.. و قـد يتباينـا فى الـرؤى.. لكـن تظل الأم.. هـى الوحيدة التـى تحبـك دون مقابـل..

أخـذت أنـادى عليهـا.. و أهـز رأسـها.. أصرخ فى وجههـا المخبـوء بين صدرى.. أتحسـس أنفاسـها بيـدى.. مازالـت حية.. سـتفيق و سـتنهض.. نظرت إلى أم سـيد.. فقالـت و هى تنتحب:

– لمـا سـمعتْ زعيق ابـن عمك معاكـى.. خافـت عليكى.. و صممـتْ تقـوم و ماعرفتـش أمنعها.. كانـت يا حبة عينـى خايفه

عليكـى.. يادوبـك قامت من عـلى السريـر.. و ماقدرتش تصلب طولها.. رجليها ماشـلتهاش..

– ساعدينى يا ام سيد.. نرجعها للسرير تانى..

بصعوبـة.. أعدنـا أمـى إلى السريـر.. مـاذا تفعـل امرأتـان فى مثـل هـذا الموقـف؟.. إحداهـن بسـيطة.. لا خبرة لها و لا حسْـن تفكـير.. و الأخـرى مكلومة.. مشـتتة الفكـر و القلـب.. تآمرت عليهـا .. فجـأة.. كل الهمـوم.. وأحاطتهـا بسـياج مـن الحـزن و الأسـى و الخـوف و القلـق.. لابـد مـن أحمـد ليسـاعدنا فى ذلـك الموقـف.. إنـه فى المدرسـة مـن المؤكـد.. و هـى قريبـة منا..

أخرجـت الموبايـل و طلبتـه.. لكـن هاتفـه كان مغلقـاً.. مـن النـادر أن يغلـق أحمـد هاتفـه.. يبـدو أن الهمـوم قـد أحكمـت مؤامرتهـا... سـأكلم شريـف.. أعلم أن ذلـك ربما يضايـق أمى.. و لكـن لا سـبيل آخـر أمامـى.. ثـم إن أمـى شـبه غائبـة عـن الوعـى..

اتصلـت بشريـف و أنـا منهـارة مـن البـكاء.. طلبـت منـه أن يأتـى بطبيـب فى أسرع وقـت.. أخبرنـى أن ابـن عمـه الطبيـب.. عيادتـه على مقربة من سـكنى.. و سـيتصل به و سـيكونان عندى فى أسرع وقـت... و جلسـت بجـوار أمى على سريرها.. أشـفقت عليهـا.. تلـك التجاعيـد التـى تتخلـل هالـة سـوداء أحاطـت

بعينيهـا.. مـا هـى إلا خطـوط فى لوحـة من صنـع يد الزمـان .. و الـذى يبـدو.. أنـه قـد اقترب مـن الإنتهـاء من رسـمها..

أمـى.. هـل أفقدهـا؟.. هكـذا سريعاً؟..هـل أنـا الملومـة فى ذلـك؟.. لقـد تسـببت لهـا فى تعـب كثـير خـلال عمـرى.. لكنها أمـى.. و حتـماً كانـت تتفهـم إختـلافى معهـا هـل ألـوم ابـن عمـى؟.. لقـد كان يحترمهـا و يعاملهـا بطريقـة حسـنة.. و لـو لا تعصبـه و ضيـق أفقـه.. لمـا تسـبب لهـا فى أى ألم.. بـل إنـه كان حريصـاً عـلى ذلك فعـلاً.. إنـه ميشـيل.. ذلـك الثعبـان الجبان.. أفسـد حياتـى فجـأة.. و ربما تسـبب فى فقـدى لأمـى.. أحمد كان عـلى حـق فى رأيـه فيـه... لابـد أن أكلـم أحمـد.. لابـد أن يكـون بجـوارى.. هاتفـه مـازال مغلقـاً.. سـأبعث لـه برسـالة..

جـاء شريـف و معه ابـن عمـه الطبيب الـذى سرعان مـا أخذ يفحـص أمـى و يفعـل مـا يفعلـه الأطبـاء مـع مرضاهـم.. قاس الضغـط.. راح ينقـل سـماعته عـلى أجـزاء متفرقة من جسـد أمى المطيـع بـين يديـه.. لكن تعبـيرات وجهـه لم تكـن مطمْئنة.

كنـت أقـف عـلى الجانـب الآخـر مـن السريـر.. و بجـوارى شريـف.. أمسـك يـده بيـدىّ الإثنتـين.. اسـتمد منهـما الأمـان و الطمأنينـة التـى اعتـدت أن أجدهمـا مع شريـف.. و لعـلى أحتاج إلى الأكثـر إذا حـدث لأمـى مكـروه.

رفـع الطبيـب رأسـه.. أمسـك بدفـتر روشـتاته و هـو يأخـذ نفسـاً عميقاً..ثـم قـال:

- الضغـط منخفـض أوى.. و جسـمها واضح عليـه الضعف الشـديد.. و حالة القلـب ماتطمنش..

كنـت اسـمع كلـمات الطبيـب .. و أشـعر بهـا سـكيناً تمـزق قـرب الدمـوع فى عينـى قبـل أن تمر عـلى قلبـى فتمزقـه... أردف الطبيـب.. يقـول:

هـى عمومـا لازم تتنقـل المستشـفى.. بـس لازم الأول تاخـد الحقـن دى و المحلـول ده.. و نعمـل ليهـا رسـم قلـب..

و نظـرت إلى شريـف الـذى انطلـق مسرعـاً إلى الصيدليـة.. و فى دقائـق معـدودة كان قد عاد بالـدواء.. و فى لحظـات .. تحولت حجـرة أمـى إلى غرفـة رعايـة مركـزة.. الطبيب يقيـس الضغط.. ثـم يتابـع بسـماعته و جهـازه حالـة القلـب.. و شريـف يمسـك زجاجـة المحلـول بيـده بـدلاً مـن الحامـل الغـير موجـود.. و ام سـيد و أنـا.. غارقتـان فى الدمـوع و النحيـب..

لسـت أدرى كـم مـن الوقـت مـرّ علينـا.. لكننـى أحسسـت أنـه دهـر.. لأول مـرة أعالـج، و أنا مدركة، إحسـاس فقْد إنسـان تحبـه.. عندمـا مـات أبـى.. لم أكـن واعيـة بالقـدر الـكافى.. و لم أكـن مدركـة لتبعـات فقدانـه.. ثـم وجـود أمـى معـى.. جعلنى

أتقبـل الأمـر.. و الأزمـة تمر سريعـاً.. لكننـى اليوم واعيـة تماماً.. ومدركـة أننى سـأصبح بـلا أب .. بـلا أم أيضاً.. كم كنت قاسـية معهـا.. أو عـلى الأقـل حـادة فى معاملتـى لهـا.. كـم مـن الوقـت تركتهـا وحدهـا فى البيـت.. و لم يمـر بخاطـرى.. أبـداً.. أنـه ربما يأتـى اليـوم الـذى تتركنـى هـى وحـدى فى البيـت.. و تذهـب.. فلا تعـود..

اعتـدل الطبيـب فى جلسـته.. و عـاد بظهـره إلى الـوراء.. و اسـنده إلى خلفيـة الكرسـى الـذى وضعنـاه لـه بجـوار السرير.. و قـال:

– الحمـد لله.. الضغـط اتظبـط شـوية.. و حالة القلـب.. يعنى أحسـن.. بـس زى ما قلـت.. لازم تتنقل للمستشـفى ..

ثـم نظـر إلىّ و هـو يتابـع حديثه الـذى أعطى قلبى نسـمة حياة من جديـد.. و قال:

أنـا هاروح مستشـفى اكتوبـر دلوقتـى.. و هارتـب كل حاجه هنـاك.. بـس ياريـت الآنسـة تبقـى تحصلنـى علشـان.. طبعـا.. الإجـراءات الروتينيـة..

و انـصرف الطبيـب بعـد أن طمأننـى عـلى حالة أمـى .. و عاد شريـف بعـد أن رافـق ابـن عمـه إلى البـاب... وقف بجـوارى.. أمسـكت بيـده .. و نظـرت أم سـيد تجاهنـا متعجبـة مـن هـذا

الرجـل الـذى ألتصـق به و أمسـك بيـده.. مـن يكـون؟.. و يبدو أنهـا لم تكـن بريئـة.. أو بسـيطة بالقـدر الذى كنـت أظنه بهـا.. أو .. ربـما هـى الفطـرة.. تركتنـا أم سـيد و أنـا أكاد أسـمع مصمصة شفتيها . .

و ارتميـت فى أحضـان شريـف.. ضمنـى بذراعيـه.. داعـب شـعرى.. ربـت عـلى ظهـرى.. كعادتـى بـه.. و ظنـى بـه دائـماً.. رجـل يعتمـد عليـه.. كـم أهـواه.. ليـت أمـى تعلـم ذلـك و تقـدره.. الحيـاة بـدون أمـى تكون كئيبـة.. تعسـة.. مؤلمـة.. لكن المـوت .. هـو فقـدان شريـف..

نظـرت.. فـإذا أمـى أنفاسـها هادئـة.. منتظمـة.. شـعرت ببعـض الراحـة و الإطمئنـان تجاههـا... و تحركـت أنـا و شريـف لنذهـب إلى المستشـفى.. كانـت عـلى مقربـة مـن سـكنى.. لذلك قررنـا أن نذهـب إليها سـيراً.. على أن نعود مع سـيارة الإسـعاف لأخْـذ أمى..

نزلنـا درجـات السـلم فى نشـاط و سرعـة غـير متعمـدة.. و كأنـما تـسرع بنـا أقدارنـا رغـماً عنـا.. عبرنـا بـاب العـمارة.. و أنا متعلقـة بيـد شريف.. ما عـدت أخشـى أن يرانا أحد معـاً.. أو أن يعلـم بعلاقتنـا أحد.. إنـه دائـماً بجـوارى.. ملجـأى فى الملمات.. و مـلاذى فى العـثرات.. و قريبـا سـأصرخ بهـا فى كل الدنيـا.. إنه زوجى..

أمـام البـاب.. أدركـت أن الليل قـد أتى.. نظرت إلى السـماء.. فـإذا سـحابة سـوداء تغطـى وجـه القمـر.. و تحجـب نـوره عـن البـشر.. لكـن ظـلام القلـوب أشـد سـواداً مـن ظـلام الليل..

انقبـض قلبـى.. وأحسسـت بالخـوف و الرهبـة.. نظـرت فى وجـه شريـف.. فـإذا هـو هـادئ.. مبتسـم.. تعلقـت فى يـده بشـدة.. و اقتربـت منه أكثر لأشـعر بالأمـان... نظـر فى وجهى.. و ابتسـم.. هممنـا بالسـير.. فأبـتْ رصاصات الجهل أن نسـتمر..

***

«هـا إن يـد الـرب لـم تقـصر عـن أن تخلـص، و لـم تثقـل أذنـه عـن أن تسـمع. بـل إن آثامكـم صـارت فاصلة بينكـم و بين إلهاكـم، و خطاياكـم سـترت وجهـه عنكـم حـتى لا يسـمع. لأن أيديكـم قـد تنجسـت بالـدم، و أصابعكـم بالإثـم، شـفاهكم تكلمـت بالكـذب، و لسـانكم يلهـج بالـشر. ليـس مـن يدعـو بالعـدل، وليـس مـن يحاكـم بالحـق. يتكلـون عـلى الباطـل، و يتكلمـون بالكـذب. قـد حبلـوا بتعـب، و ولـدوا إثمـاً. فقسـوا بيـض أفعـى، و نسـجوا خيـوط عنكبـوت. الآكل مـن بيضهـم يمـوت، و الـتى تكـسر تخـرج أفعـى. خيوطهـم لا تصـير ثوبـاً، ولا يكتسـون بأعمالهـم. أعمالهـم أعمـال إثـم، و فعـل الظلـم فى أيديهـم. أرجلهـم إلى الـشر تجـرى، و تـسرع إلى سـفك الـدم الـزكى. أفكارهـم أفـكار إثـم. فى طرقهـم إغتصـاب و سـحق. طريـق السـلام لـم يعرفـوه، و ليس فى مسـالكهم عـدل. جعلوا لأنفسـهم سـبلاً معوجـة، كل مـن يسـير فيهـا لا يعـرف سـلاماً»

(اشعياء ٥٩: ١ – ٨)

(١٣)

أحمد

امتلئت مدرجات الكنيسة تماماً.. حتى إن بعض الحاضرين اضطروا إلى الوقوف لأنهم لم يجدوا أماكن خالية ليجلسوا فيها.. أرى الجميع فى فرحة و سعادة.. و لولا رهبة المكان و قدسيته.. لسمعنا الأغانى و الزغاريد..

حتى صور القديسين على الحوائط.. صارت أفواهها مفتوحة كمن يبتسم ابتهاجاً.. بل أننى أحسست أن يسوع قد رفع رأسه على صليبه.. رضا و طمأنينة بعد أن ناءت بحمل خطايا البشر لآلاف السنين.

استقبلنى الأب سمعان فرِحاً.. سعيداً.. ثم تركنى سريعاً لأنه كان مشغولاً بتجهيزات الزفاف السعيد.

ارتديت بدلتى الجديدة.. اشتريناها سوياً.. هى التى اختارت موديلها و لونها.. و على باب الكنيسة.. وقفت انتظرها كما أرادت.. حلمتْ بأبيها يقف مكانى فى إنتظارها.. يشاركها فرحتها.. يبارك زواجها.. يلثم جبينها بقبلة الرضا و المحبة.. يستقبل المدعوين.. يوزع عليهم الحلوى.. و يتلقى منهم التهانى... فحققت لها حلمها.

تعجب المدعوون منى.. و تسائل بعضهم من عساى أكون؟.. من هذا الذى إمتلأ وجهه بالسعادة.. و نطقتْ ملامحه بالفرحة؟.. سألنى أحدهم:

- انت مين؟

- انا ... اخوها

تعجب السائل.. فقلت:

- أليست الأخوة رداء المحبة؟

سألنى آخر:

- مين حضرتك؟

- أنا حبيبها..

فعقد حاجبيه تعجباً.. فقلت له:

- لا تعقــد حاجبيــك.. أليــس الحــب هــو الرابطــة النقيــة الطيبــة.. الطاهــرة؟

- وانت تبقى مين؟

- أنا حلمها..

لم يفهم السائل.. فتابعت كلامى:

- أليس الحلم.. هو كل شكل جميل نرجوه لحياتنا؟

- هو انت اسمك ايه؟

- أحمد

- طيب.. و شريف يبقى مين؟

- شريـف.. جوزهـا.. واقعهـا.. و مسـتقبلها.. أنـا .. مجـرد حلـم.. و كل حلـم بيحتـاج اللى يفـسره.. اللى يحققـه.. اللى يخليه حقيقة .

و مـن بعيـد.. أرى سـيارة مقبلـة نحـو الكنيسـة.. مزينـة مثل مركبـات الملوك.. يشـع من داخلها ضوء كالشـمس يبهـر العيون و يأخـذ القلـوب.. توقفتْ السـيارة.. نزل العريـس.. و دار حول السـيارة.. فتـح البـاب المقابـل.. نزلـت العـروس.. ميريـام.. و تعلقـتْ بيـد عريسـها.. شريـف.. تقدما نحـو الكنيسـة.. نظرت إلى وجههـا.. مشرقـة مثـل الصبـاح.. جميلـة كالقمـر.. تنظـر فى

عـين عريسـها المملـوءة فرحـة.. و تسـند رأسـها إلى كتفـه مثـل ظبيـة بريـة تغـازل حبيبها.

خـرج الجميـع مـن الكنيسـة لاسـتقبال العروسـين.. الرجـال يرفعـون أياديهـم فى الهـواء.. و يصفقـون.. و النسـاء يزغـردن.. عيـون الجميـع تتـلألأ بـشرا و سروراً أحـاط العروسـين بهالة من نـور نسـجتْ خيوطهـا مـن أشـعة ضـوء المحبة.

لكـن .. لهبـاً مـن نار يحـاول أن يزيـح بلسـانه أكوامـاً من تلك الأشـعة التـى تحـوط العروسـين.. لسـان نار مـن على يمينـى.. و آخـر من عـلى شـمالى.. كل واحـد منهما ينطلـق من آتـون تضطرم بداخلـه نيران الحقـد والكراهية.. حتـى إذا كاد أن ينفجر.. يبعث نـاره و حممـه فتخـرج من عينـين أشـبه بفوهتى بـركان ثائر.

نظـرت .. دققـت.. فرأيـت عـين اسـلام عـن يمينـى.. و عـين ميشـيل عـن شـمالى تتميـزان غيظـاً مـن الحبيبـين.. أرى كل واحـد منهـما يتجه نحـو العروسـين.. تـزداد حركتهـما سرعة.. و تـزداد خطواتهـما اتسـاعاً حتـى صـارا يتحـركان بسرعـة كالـبرق الخاطـف.. و فجـأة توقفا أمـام العروسـين.. ثم ألتصقـا فأصبحا جسـداً واحـداً برأسـين تمتـدان ببـطء تجـاه الحبيبـين.. صـار كل عنـق يطـول و ينحف.. و رأيـت كل رأس تصغـر.. حتى صارت رأس ثعبـان يريـد أن يفـترس ميريـام وشريـف.

فـزع الجميـع.. و انطلقوا يهربـون يميناً و يسـاراً.. لا أحد يرى الآخـر ولا يشـعر بوجـوده.. تصادمـوا بعشـوائية مثـل جزيئـات غـاز لا يربطهـا ببعضهـا رابـط... و عينـا الثعبانـين.. لا تـرى إلا الحبيبين..

تعلقـتْ ميريام بشريف.. أمسـك يدها.. شـدّ عليهـا.. جعلها وراءه.. تراجعـا ببـطء و هـو يحـاول إبعـاد ذلـك المسـخ عنهـما.. نفـث ثعبـان لسـان نـار.. تحاشـاه شريـف بيـده.. فى حـين كان فحيـح الآخـر يصـم الأذان.. انطلـق شريـف و ميريـام يهربـان مـن ذلـك الشـيطان... اندفعـت ورائهما أريـد انقاذهمـا.. و فجأة تحولـتْ أقـدام المسـخ إلى ذنـب يطوحـه يمينـاً و يسـاراً.. تفاديت حركته.. وأمسـكت به.. اسـتدار المسـخ نحوى.. رفع رأسـيه إلى أعلى كأفعى سـتنقض على فريسـتها.. اسـتجمعت قوتـى و ألقيت بـه بعيـداً.. و أمسـكت شريف بيـدى اليمنى.. و ميريام بشـمالى.. نتقهقـر رويـداً.. رويـداً.. إلى الخلف.. نترقب المسـخ و هو يلملم نفسـه.. يسـتدير ناحيتنـا.. يهـز رأسـيه.. فحيـح الغضـب ينطلق مـن كل فـم مع لسـان مشـقوق..

انطلـق ناحيتنـا مثـل سـهم فـارق قوسـه فى التـو.. اسـتدرنا ثلاثتنـا لنهـرب.. مددنـا أرجلنـا دون أن نـدرى أننـا.. كنـا عـلى شـفا هاويـة إلى عمـق سـحيق..أصدر عقـلى صدمـة إلى قلبـى.. نبهتـه .. فصحـوت مـن نومـى و أنـا أقـول و أكـرر:

- أعـوذ بـالله من الشـيطان الرجيـم.. ايـه الكابـوس ده؟!!.. سـلّم يا رب سـلّم..

نهضـت.. أحـاول رفـع رأس أثملهـا التفكـير و التركيـز.. و قمـت .. تغالبنـى مفاصـل و عضلات استمرأتْ النـوم هرباً من الجهـد و العنـاء.. لقـد نمـت سـاعات طويلـة.. اسـتنتجت ذلك عندمـا توجهت إلى البلكونة.. أشـم هـواء نقياً.. فرأيت الشـمس تنظـر إلىّ مـن مشرقهـا.. و كنـت قـد ودعتهـا فى البلكونـة أيضـاً بعـد أن عُـدت مـن العمـل حـين غربـتْ و أنـا اتجـه إلى السرير.. كنـت قـد وصلت إلى سـكنى فى الهـرم بالجيـزة.. و أنـا مقتول من التعـب.. و الواضـح أنـى قـد نمـت الليـل بطولـه.. نمـت دون أن أدردش مـع ميريـام بالهاتـف كعادتنـا.. إننـى حتـى قد نسـيت الهاتـف مغلقـاً.. و اليـوم.. قـداس القيامـة و غـداً العيـد.. و قـد اعتـادت ميريـام.. منـذ ألتقينا.. أن أكـون أول المهنئين لهـا بالعيد.

قمـت بتشـغيل الموبايـل.. تتابعـت أمـام عينـى.. و قرعـت أذنـى بصـوت حـاد.. إشـارات التنبيـه بعـدد المكالمـات الفائتة.. ثـم رسـالة من ميريـام.. فتحتهـا.. قرأتهـا..» ميشـيل.. الحيوان.. قـال لأولاد عمـى عـلى علاقتى بشريـف.. و أمـى تعبانـه أوى.. كلمنـى أول مـا تفتـح تليفونـك«..

لم أتعجـب مـن فعْـل ميشـيل.. فقـد رأيته شـخصاً ماكـرا.. و الماكـر يصـير حقـيراً إذا لـزم الأمـر.. لكـن العجيـب أن تنخـدع

فيـه ميريـام.. اتصلـت بهاتفها.. جـرس.. تأخـر الـرد.. لا أعتقد أنهـا نائمـة فقـد اقـترب ميعـاد العمـل.. انفتـح الخـط... فاجئنى صـوت رجـل قائلاً:

- آلو..

- حضرتك مش ده تليفون ميس ميريام؟!! (قلت متسـائلاً)

- أيوه يا استاذ ده تليفونها.. بس هى....

- طيـب حضرتـك تبقـى مـين؟.. و تليفونهـا بيعمـل ايـه معـاك؟.. (قلـت مقاطعـاً بنـبرة حـادة)

- انت اللى مين يا استاذ؟ .. و انت داخل فيا شمال كده..

- انا زميلها فى الشغل.

- آاااه... ماشـى.. بـص يا زميلهـا.. أنا بقـى مصطفى .. اللى ماسـك الجـراش اللى تحـت العـمارة الـلى سـاكنه فيها الأسـتاذه.. و امبـارح حصلـتْ بلـوه سـودا.. واحـد ضرب عليها نـار هى و واحـد كان معا..

- ايه؟!!!.. انت بتقول ايه؟!!

- ما تهدى يا استاذ خلينى اكمل لك؟؟

- قول .. بس بسرعة الله يخليك .. طمنى!!

- مفيش ... الموبايل وقع منها و احنا بندخلهم الاسعاف و ودناهم المستشفى..

- مستشفى ايه؟.. (قلت ملهوفاً)

- ٦ اكتوبر اللى جنب...

و أغلقت خط الإتصال.. و أسرعت كالمجنون إلى الدقى.. إلى المستشفى..

حروب و أخبار حروب، مجاعات و أوبئة و زلازل فى أماكن.. ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم..

أمانة ضاعت.. و خيانة تفشت.. و ضلال و جهل و عنف.. إيمان قلّ.. وعقل ضلّ.. و أكثر الناس عن الحق ذل.. و مسحاء كذبة و أنبياء كذبة.

ذنوب ومعاصى.. شرور و آثام.. و لكثرة الإثم بردت محبة الكثيرين.

ماذا تبقى .. لينقضى الزمان و تقوم الساعة.. يقتل الحب.. و يطعن السلام.. و تغتال المحبة.. تزرع الشرور.. و تغرس البغضاء و تصير الكراهية شعاراً..أى عالم ذلك الذى نعيش فيه.. و أى حياة تلك التى نحياها.. و أى فحش و قبح تدنتْ

إليـه أخـلاق بنـى الإنسـان؟.. و أى خسـة وحقـارة و نذالة آلت إليهـا سـلوكيات البشر؟

ألفـان من السـنين مـن عمر البشريـة.. و صرخة المسـيح تتردد فى جنبـات الأرض..» طوبـى للأنقيـاء القلـب لأنهـم يعاينـون الله. طوبـى لصانعـى السـلام لأنهـم أبنـاء الله يدعـون..».. لكـن .. عـذراً سـيدى المسـيح.. صرختـك لم تصـدف إلا القليـل مـن الآذان المفتوحـة.. المليـارات مـن الذيـن يحملـون شـعارك.. و ينـادون باسـمك.. و يتمسـحون فى صفتـك.. لكـن .. ليـس لهم قلـب مثـل قلبـك.. و لا نفـس مثـل نفسـك.. و لا آذان مفتوحـة فتتلقـى دعوتـك... عـذراً سـيدى المسـيح..

و أسـألك السـماح يا سـيدى يا رسـول الله .. خمسـة عشر قرناً مـن الزمـان.. و قولـك تـردده أفواهنـا حـين ننظـر فى الكتـب..» لـن تدخلـوا الجنـة حتى تحابـوا..ألا أدلكم عـلى شـئ إذا فعلتموه تحابتـم: أفشـوا السـلام بينكـم».. لكنـه قـول لم يجـاوز حناجـر الكثـير مـن قائليـه.. و لم تمـس حلاوته شـغاف قلوبهم.. عـذراً.. سـيدى .. رسـول الله.

عـدت مـن المستشـفى إلى سـكنى.. الألم يعتـصر قلبـى .. و الحـزن يمـلأ أركانـى.. و خـوفى عـلى ميريـام و شريـف يهـز وجدانـى.. فكرى شـارد.. وعقلى غائـب.. و نفسـى حزينة حتى المـمات..

وقفت فى الشرفة المطلة على شارع طويل.. أتأمل السائرين فيه.. أنظر إلى وجه هذا و ذاك.. و هذه و تلك.. الإيمان و المحبة.. حين يملآن القلب.. ينعكسان نوراً وبهاء فى الوجه.. لكننى لم أرَ الصلاح و التقوى فى وجه أى منهم.. الكل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.. فأصبحت وجوههم كالحة.

فى طريق عودتى.. صادفت اسلام.. كان ينظر تجاهى و يبتسم مثل ثعبان فتح فاه ليدس السم فى جسد فريسته.. من المؤكد أنه قد علم بما حدث..

حقاً.. الإنسان الصالح.. من الكنز الصالح فى القلب يخرج الصالحات.. والإنسان الشرير .. من الكنز الشرير يخرج الشرور.. يبتسم و لا يعبأ بما حدث لميريام.. أظنه سعيداً بذلك.. يرتدون ثياب الحملان.. و قلوبهم ذئاب مفترسة.

تركت الشرفة.. و عدت إلى حجرة المعيشة.. و كلّى قلق على ميريام و خوف من أن أفقدها..خاطر يفزعنى.. يقتلنى.

ميريام.. أعادت إلىّ روحى بعد أن فقدتها مع مى.. و عاودتنى ثقتى بنفسى بعد أن ذهبت عندما فارقتنى مى..و ما أظنها فارقتنى.. كانت حبى الأول والأكبر.. و أيضاً.. جرحى الذى لا يبرأ.. أين هى الآن؟!!..لكن لماذا هى الآن أمامى؟!!.. لماذا يستدعيها خاطرى فى هذه اللحظة؟.. و هل

ممكـن أن تعـود لى ثانيـة؟.. و إن عـادتْ هـل سـأقبل؟.. كلنـا لـو سـئل.. يقـول سـأرفض.. لكنهـا.. لـو كانت فى مـشرق الأرض .. و أنـا فى مغربهـا.. ثـم أشـارت إلىّ.. لأتيتهـا هـرولاً.. لكـن ما علاقـة ذلـك بـها أنـا فيه مـن مصـاب؟!!

مـى .. هى التى كسرتنـى.. و لم تكن ميريام أول من أشـعرتنى بالحـب بعدهـا.. لكـن ميريـام.. حبهـا مختلـف.. حـب صـافى.. رائـق.. لا رغبـة فيه.. حـب لا يصادفـك فى حياتـك إلا نادراً.

أعطتنـى ميريـام الفرصـة لـرأب صـدع قلبـى و عقـلى و روحـى.. لـن يتصـور أحـد ما بيننـا مـن حـب.. لأن الكثيرين لا يعرفـون المعنـى الحقيقـى للحـب..

ألتقطـت الهاتـف.. و اتصلـت بالطبيـب المسئول عـن ميريام و شريـف فى العنايـة المركـزة بالمستشـفى.. كان لابـد أن أطمئـن عليهـما بعـد أن أصبـح لزامـاً أن أغـادر المستشـفى.. أخبرنـى الطبيـب أن حالتهـما مازالـت غـير مسـتقرة.. إلا أنهـما فى حالـة أفضـل مـن تلـك التـى اسـتقبلتهما المستشـفى عليهـا.

أدرت التلفـاز لأشـغل ذهنـى بـأى شـئ.. كان قـداس عيـد القيامـة.. يتـم نقلـه مـن الكاتدرائيـة.. و كانـت الكامـيرا تتنقـل عـبر الكنيسـة.. صـور القديسـين عـلى الحوائـط.. ترانيـم و صلـوات.. قيامـة يسـوع مـن الأموات.. خـلاص بنـى البشر من

شرور بعلزبـول و الخطايـا.. المحبـة التـى تغمـر القلـوب..

كان البابـا يُلقـى موعظتـه .. حـين كانـت الكاميرا تسـتعرض وجـوه المرنمـين بالأناشـيد.. قـال البابـا:» اختـار يسـوع المـوت عـلى الصليـب لأنه أحـب البشر.. وقام مـن الأمـوات لأنه يحب بنـى البـشر.. ليقـضى عـلى الشـيطان و يهـزم مـوت الخطيـة .. و ينـزع الـشرور مـن القلـوب.. و يوثق روابـط المحبة بـين الناس .

ثـم تابـع قداسـته:» فالمحبة.. حـين تغمـر القلـوب.. ينعكس ضوئهـا فى السـلوك.. و يشـع نورها فى الوجـوه...«

إلا ذلـك الوجـه الـذى تذكرتـه .. حـين رأيتـه أمامـى فى التلفـاز... وجـه أعرفـه...

تمت

الكاتب فى سطور

الإسم : ناجى محمدى محمد

المواليد : ١٩٧١ بالقليوبية

المؤهل : بكالوريوس العلوم فى الفيزياء

العمل : مدرس للفيزياء بالمرحلة الثانوية

التواصل مع داركتاب

Email: darkitabone@gmail.com

fasbook: darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨